# ينابيع الوداد

## لصفوة العباد صلى الله عليه وسلم

بقلم

مصطفى الحمامي

أحد العلماء

وخطيب الحرم الزينبي

---

« تنبيه » طلبت جمعية الهداية الاسلامية ببغداد من فضيلة المؤلف كلمة في حضرة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل لها صورة هذه الكلمة نقدمها لحضرات القراء مع زيادات فيها تقبلها الله ورسوله منه آمين ؟

غرة ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هجرية

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

## ١ ـ هل يحب حضرة خاتم الأنبياء ﷺ

## ولمـــاذا يحب ؟

يا من تودد بجلائل النعم ، إلى عباده الصالحين ، وخص بالباهر مما له من كرم ، حضرات الخاصـــة من خاصته الأكرمين ، يا من جبل قلوب ذوى الفضل على حب الكمال ، حتى لا تستطيع الصبر عن التراءى اليه ، وطبع نفوس أهل النبل على عشق الجمال ، جمال الغرائز كحسن الخلق وما اليه ، يا من وعدت ـ ووعدك حق خلفه مستحيل ـ أن تلحق الناقص المحب بالكمل من الأحباب ، وأمرت العلماء أن يبلغوا مثل ذلك الوعد النبيل ، لترفع بفضلك من يعمل ليظفر بذلك الوعد العجاب ، إنى أشهد قلبا ولسانا حتى يبدنى بوشما به من شعرات ، أنك الخالق وحدك للعظماء وما لهم من عظم ، وأنك أرسلت الرسل ورفعت بعضهم على بعض درجات ، وجعلت حضرة خاتمهم سيد الخلق عربهم والعجم ، يا رب كافئه عنـا فانا عن مكافأته عاجزون ، وكافىء عن الانسانية كلها جميع الانبياء ، وبالسعادة تفضل على تابعيهم

فانهم فقراء ذليلون ، واحشرنا بمحض فضلك مع النبيين والصديقين والشهداء

أما بعد ، فلعل العنوان المتقدم يبدو فى أول النظر مستنكرا ، فان حب سيد الخلق صلى الله عليه وسلم أمر مفروغ منه ، ومن الطبيعيات عند كل ذى إنصاف من غير أتباعه عليه الصلاة والسلام ، فكيف بأولئك الأتباع الذين به استحقوا لأن يكونوا خير أمة رآها هذا الوجود ويراها الوجود الثانى الأبدى ، والذى دعانى لأن أجعل هذا الموضوع موضع بحثى فى كلمتى هذه أمران :

الأمر الاول يتعلق بغير المؤمنين به صلى الله عليه وسلم ، والامر الثانى يتعلق بأولئك المؤمنين زادهم الله إيمانا وهدى

أما الامر الاول : فهو رجائى أن يقع ما أكتب فى نفوس أولئك الناس موقع قبول - باعتباره حكما تاريخيا صادقا - فيبادروا إلى محبة حضرته صلى الله عليه وسلم والايمان به ، فأكون أنا بما أكتب سببا فى إخراج بعض عباد الله من شقاء لا آخر له إلى نعيم غير محدود ، وذلك — فى رجل واحد — خير مما طلعت عليه الشمس وغربت ، فكيف إذا كثروا ، وهؤلاء الناس الأجانب لم يقرءوا عنه صلى الله عليه وسلم إلا ما كتبه رجال دينهم ومن إليهم من الكتاب المغرورين بهم ، ومعروف مبلغ تعصب أولئك الرجال وأولئك

الكتاب ، ذلك التعصب الذى جعلهم يمثلونه صلى الله عليه وسلم فى كتاباتهم بمثال تفزع له القلوب وتفر منه الانسانية فرارا

وأقل ما يكون من الاجنبي إذا رأى ما أكتب أن يرتبك فى شأنه صلى الله عليه وسلم لما يقرأ من حقيقة تفارق ما فى نفسه كل المفارقة ، وهذا يدعوه بلا شك إلى أن يراجع الموضوع مراجعة الباحث المحقق الذى يريد ـ بجد ـ أن يستخلص الحق من هذا التناقض ، وهو إذا بحث ذلك البحث خرج منه بنتيجة لا يمكنه معها إلا أن يترامى بكله فى أحضان الاسلام . وتلك النتيجة هى تبينه أن رجال دينه كانوا يفترون عليه صلى الله عليه وسلم افتراء ظاهرا تعمده غاية الظهور .

وهذا البحث الحر المنصف المقصود منه تعرف الحق فى شأن هذا الرسول الكريم ـ هو ماأدعو إليه كل منابذ لهذا الرسول الحكيم بعيد عن دينه النور الوهاج ، أدعو هذه الدعوة وأنا واثق الثقة كلها أنهم لو سمعوا دعوتى هذه لسارعوا — بلا استثناء واحد منهم — إلى اتباعه صلى الله عليه وسلم وسلوك سبيله النير المستقيم ، أنا أدعو هذه الدعوة وقلبى كالجبل رسوخا فى أن من استجاب لى سيكون فى جانبي بلا أى جدال ، وهذا شأن كل من يدعو إلى حق ، فانه يعرف

فأن البصائر إذا لمحته انحازت إليه مولية عن باطلها فى أمر عظيم عـــلى أيام مضت وهى مغرورة به ، فان النفوس الفاضلة لا تتمادى على الباطل أبداً بعد تبينه ، إذ أن نتيجة التمادى الشقاء الأبدى ، وأنا لا أظن عاقلا يرضى لنفسه شقاء لحظة فضلا عن شقاء لا آخر له فى نار لا يعلم قدر شدة ألمها إلا الله ، لا يزادون فيها إلا عذابا ، ولا منتهى لهم فيها ، ولا هى تنتهى إلى أمد ، إن الناس هنا إذا أحسوا أن سينزل بهم أى مؤلم طار النوم من أعينهم ، وغشيهم من الهم ما غشيهم وشرعوا هم وكل من يلوذ بهم فى عمل كل ما يحفظهم ويذود عنهم ذلك المؤلم الحقير ، وإذا كان ذلك فعل العقلاء فى هذه الدار لآلام قد لا تنزل ، وإن نزلت فانها لا تلبث أن تزاح وتزول ، فكيف ينبغى أن يكون اهتمام العاقل بألم شدته فوق تصور العقول ، ومع ذلك لا آخر له ، إني لهذا أشفق كل الشفقة على أولئك الاخوان الأجانب وأرجوهم الرجاء كله أن يعنوا بقراءة هـــذا الموضوع قراءة دقيقة ويعملوا ما استطاعوا فى الوصول إلى الحق فى هذه المسألة التى ليس للانسان مسألة أهم منها ولا أدق

وأما الأمر الثانى فان يحبه المؤمنون به صلى الله عليه وسلم الحب الذى يكونون على بصيرة فيه عليه الصلاة والسلام ، وهم لا يحبونه ذلك الحب الا إذا عرفوا قدره تمام المعرفة بحسب

قدرهم، وذلك لا يكون إلا بالاطلاع على نحو ما سأكتبه إن شاء الله، وأنا لا أريد المؤمن أن يحبه صلى الله عليه وسلم إلا على النحو المذكور فانه حب يكون مبنيا على البراهين القاطعة، وهو إذا كان كذلك أثمر ثمرتين جليلتين

الثمرة الأولى: رسوخه فى دينه وعدم تزلزله بالمزلزلات مهما اشتدت وعصفت زوابعها، وإذن لا يكون المؤمن أمام الملحدين والمبشرين كالكرة يلعب بها الصبيان كما يشاءون؛ بل لا يرون منه إلا السخرية بهم والاحتقار والرثاء لهم فى مصيرهم الأبدى، بل قد يعكس عليهم القضية ويصيدهم بدل أن يصيدوه

والثمرة الثانية: مايورثه هذا الحب من قوة نور فى البصيرة وشدة حرص على الاتباع واجتهاد فى الطير يسمو بالعبد إلى درجات المقربين المحبوبين لمولانا ومالك نواصينا ورب خرانا وأولانا

ولعل القارىء بعد هذا البيان استساغ العنوان الذى وضعته لهذه الكلمة، وإذن أشرع فى بيان أنه صلى الله عليه وسلم يحب ولما ذا يحب؟ فأقول:

## ٢ — ماذا يفهم لقب رسول الله

من مقتضيات الحب المسلمة لدى الناس جميعا أن يصطفى

المرء ويختاره ويحبه عظيم من الناس ، وكلما كانت درجة هذا العظيم أرفع كلما كان اقتضاء المحبة أشد ، وذلك أن النفوس تفهم أن العظيم لايحب ويختار إلا من يستحق ذلك ، لأدبه السامى وفضله الكبير ومقامه الرفيع الممتاز ، ليكون بين المحب والمحبوب تناسب ، وإنى أرجو أن يعنى القارئ الكريم بامتحان هذا المعنى والتأكد من صدقه ، وذلك بأن يتتبع من يصطفيهم العظماء المطهرون قلبا وقالباً ، ويتجسس على سيرهم الخاص وأدبهم مع الله ومع عباده ، أنا لا أشك فى أنه إن فعل ذلك لم يستفد أكثر مما استفاده مما نقول إلا أنه استفاده من طريق المباشرة والتجربة بعد أن كان ذلك عنده من درجة علم اليقين ، وإذا كان هذا من المسلمات ، فماذا يقول القارىء فى امرىء يحبه ربنا عالم الغيب والشهادة ، أيراه جديراً بأن يحب أم لا ، ولعله يبادر بقوله إنه جـــدير بالمحبة الكبرى وجدير ، فانا لانتأخر عن محبة من يحبه عظيم من الناس كما قلنا — ولعل هذا العظيم غالط ومغرور ومحبوبه لايستحق أن يحب ولكنه من أهل الاتقان لخلق التصنع والرياء فلا يعلم محبه ماوراء ظاهره ، لأنه لايعلم الغيب إلا الله . أما من أحبه واصطفاه من يستوى عنده الغيب والشهادة فلا احتمال أبدا لعدم استحقاقه المحبة ، هذا فى غاية الوضوح ، وإذن نقول : إن نبينا ومولانا محمدا صلى الله عليه وسلم اصطفاه الله

واختاره من الخلق وأحبه ، وحبه له ليس أى حب بل حبا به جعله رسولا عنه ، ومن المعلوم أن الرسول عنوان المرسل أى يقرأ منه حال المرسل ، وبه يحكم عليه ، فاذا كان جليلا دلت جلالته على أن مرسله جليل، لأنه هو الذى اختاره وأرسله والعكس يفهم العكس بالضرورة ، وإذن حضرة نبينا صلى الله عليه وسلم يستحق المحبة الممتازة الفائقة لأن الذى اختاره لأن يكون رسولا عنه ربنا عالم الجهر والسر ، هذا معنى لايختص به حضرة رسولنا صلى الله عليه وسلم بل كل رسل ربنا يشتركون فيه . ولذلك علمنا هو سبحانه وتعالى أن لا نفرق بين أحد من رسله فى الايمان بهم . وليعلم أن حب ربنا لأى تقى من عباده ليس كحبه للرسل عليهم الصلاة والسلام . فان التقى تقى عندنا بحسب الظاهر ، فحبه تعالى له أمر ظنى . ومع ذلك توعد تعالى من يعاديه بالحرب ، أما حبه تعالى لرسله عليهم الصلاة والسلام فقطعى قام عليه البرهان القاطع ، وهو المعجزة التى يخلقها تعالى على يد الرسول يقول بها لأمته آمنوا بهذا الذى يدعوكم إلى توحيدى وعبادتى فانه رسولى حقا ، ولذلك خلقت له هذه المعجزة التى تعجز العالم كله أن يفعل مثلها ، فالذى لا يحبه ولا يؤمن بأنه حبيب الله بعد هذه التزكية الالهية يكون مستخفا به تعالى وبتزكيته ، أو يكون مكذباً له فى شهادته تعالى

ربنا وتقدس ، ومنتهى الجرائم أن يتوجه مثل هذا الجرم إلى الله من عبد لم يخلق ولم يرزق ولم تصل اليه أى نعمة إلا من هـــذا الاله الذى يستخف بتزكيته ويكذبه حقت كلمته ، ولذلك كانت عقوبة من لا يحب الرسل الخلود السرمدى فى النار وهو منتهى العقوبات ليناسب منتهى الجرائم . ومن هذا البيان تستطيع أن تفهم أن حبه تعالى لعباده ليس فى درجة واحدة ، بل يتفاوت ، ولذلك جعل تعالى بعضه ظنيا وبعضه قطعيا كما عرفت . هذا القرآن يقول « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » ومنه تفهم التفاوت بين الرسل ، ويقول « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ومنه تفهم التفاوت بين الصالحين ، وينبغى أن يعلم أن حب ربنا للعبد يكون بقدر ما عنده له من خشية وطاعة ، فكلما كان أخشى لله وأطوع له كلما كان حبه له أقوى وآكد ، إذن تستطيع أن ننتقل من هذا إلى أن حب ربنا لنبيه صلى الله عليه وسلم وخاتم رسله أقوى وآكد من حبه لجميع الخلق بما فيهم رسله وملائكته لأنه صلى الله عليه وسلم أتقى الجميع وأخشاهم لربه . هذه حقيقة إجماعية ، ومنها تعلم أن حبنا له صلى الله عليه يجب أن يكون أسمى حب وأرفعه حتى من حب لمرء نفسه وماله وأهله . وهذا الحب لا يكون محترما وله قيمته إلا إذا ترتبت عليه آثاره — من الغيرة عليه صلى الله عليه وسلم والغضب له أشد من الغيرة والغضب للنفس والمال والأهل ،

ومن الحب لما يحبه صلى الله عليـــه وسـلم أكثر من محاب النفس والأهـل والولد فليعلم هـذا حق العلم ، ولا يكتف بمجرد الدعاوى اللسانية والهواجس النفسانية

وإنى أرانى توسطت بحـرا خضما من مقتضيات حبه صلى الله عليه وسلم لا شاطىء له . وإنى مقتصر من هذا — بعـد ما تقدم - على أثره صلى الله عليه وسلم فى الدعوة إلى ربه وما يلزمها من ( ثبات وعلم وحلم وشجاعة وصدق وقوة بيان وتواضع وزهد وعمل بما يدعو اليه ) ، هى نقط عشرة يضاف اليها النقطة الماضية أعرض لها إن شـاء الله ، أبرهن بها على أنه صلى الله عليه وسلم جدير بأن يحب الحب الذى لا يدانيه حب ، وإنما لزمت هذه الأمور التسعة الدعوةَ إلى الله لأن الداعى يريد تحويل الناس عما اعتادوه إلى ما يدعو اليـه . وذلك فى منتهى الصعوبة على النـاس . فاذا لم يكن الداعى صبورا جلداً ثابتا على الدعوة حمله الضجر على مقاطعة الناس وفراره منهم إلى غير تلاق ، وكيف يدعو هذا ، وإذا كان جاهلا لم يدر مايقول يدعو به الناس ، وهذا هـدم للدعوة من أساسها ، وإذا لم يكن حليما نفر الناس منه بسوء خلقـه وجعلهم يهربون منه هروبا ، وإذن لا يجد من يدعوهم ، وإذا لم يكن شجاعا لم يستطع أن يقف فى وجوه المبطلين يجاهرهم بعد هم عن الحق ، وإذن لايدعو ، وإذا كان كاذبا سقط من

النفوس واحتقره الناس ورأوه غير حقيق بان يسمع له ، وكيف يسمع العقلاء قول الكاذب ، وإذا كان ضعيف البيان أضحك الناس منه وصرفهم عنه بعجزه أو تقصيره عن إفهامهم ما يريد ، وإذن من يدعو ، وإذا كان متكبرا استثقله الناس وصعب على أنفسهم الاجتماع به فلا بد من يدعوهم ، وإذا كان حريصاً على الدنيا متكالباً عليها شكك الناس فى إيمانه باليوم الآخر ، وكيف يقتدى بمن هذا حاله ؛ واذا كان يدعو العباد الى أمور ويفعل هو أموراً لا تتفق معها كان غير صالح للدعوة لأن المدعوين يرتبكون بين قوله وفعله قائلين فى أنفسهم أى الأمرين أحق بالطاعة والامتثال ؟ وإنا نتكلم — إن شاء الله — على تلك الأمور العشرة واحداً واحداً على الترتيب السابق فنقول

## ٣ — أثر الدعوة

أما أن أثر الدعوة يحرض على حب الداعى إذا كان إيجابيا — فذلك ما نشاهده فى أنفسنا ، فان أحدنا لو وقعت عينه على مرشد تسبب بارشاده فى هداية أحد المتمردين لأحبه ، وكان موضع الاعجاب عنده ، لما أنه نقل المتمرد من زمرة جنود الشيطان إلى زمرة جنود الرحمن ، أو أنه بقوته الارشادية حول ذلك المتمرد من شبه شيطان الى شبه ملاك

أو أنه وقف فى ناحية — بتلك القوة الارشادية — ووقف الشيطان وجنوده فى ناحية بقوتهم الاغوائية وهو وهم يتنازعون ذلك المتمرد ، وبعد قليل انكشف الغبار عن انتصاره وهزيمة الشياطين أمامه ، تاركين غنيمتهم لا يلوون على شىء ، وجدير والله بالحب من تنهزم أمامه الشياطين ، ولعل حضرة القارىء لا يخالف فى أن حبه لذلك المرشد يزداد كلما ازداد المهتدون بارشاده ، وبقدر هذا الازدياد يزداد المرشد فى نفسه جلالا وعظما ، لما أنه لا يصل إلى أن يهتدى على يده واحد إلا بعد أن يبذل من المجهودات النصحية ما يبذل ، إذ أن ما عليه ذلك المتمرد — كان من عاداته المستحكمة ، وتغيير العادات التى ذلك شأنها صعب وشديد ، ولذلك يقولون فى أمثالهم (قطع الورايد ولاقطع العوايد) ، زد على هـذا أن الاعوجاج هوى النفس والاستقامة مكروهها ، ومن غير المفهوم أن تترك النفس هواها وتقبل على مكروهها ، وفوق هذا وذاك لشياطين الانس والجن أحكام على المعوج فى غاية الصرامة والشدة ، فمن أعجب العجب حقا أن يتغلب المرشد على كل ذلك ويظفر بانقاذ واحد يهتدى على يديه ، اجتمع مرشدان فقال أحدهما للآخر ما أصعب هداية الغاوين ، فانه لم يصلح على يدى من أول عهدى بالارشاد إلا واحد ونصف ( يريد بالنصف رجلا

لم يكمل فى اهتدائه ) فقال له صاحبه ( أنا صلح على يدى آلاف لا أحصيها ) ؟ فعجب صديقه وقال كيف ذلك يا أخى فكان جوابه أن قال ( من لم يصلح للجنة يصلح للنار ) فضحك صاحبه وزاد استغرابه لكثرة من صلح على يديه ، إذا عرفت هذا فقل لى كيف يكون حبك لحضرة نبينا صلى الله عليه وسلم وقد هدى ربنا به لا واحداً ولا عشرة ولا مائة ولا ألفاً ولا مئات الآلاف ولا مئات الملايين ، بل به هدى أمة بأسرها لم يهتد من أمة قط كمن اهتدوا منها فقد ورد أن ( أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الامة وأربعون من سائر الامم ) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان والحاكم ، ولا تظن أن هداية هذه الأمة كهداية غيرها ، لا تظن هذا ، فان هذه الأمة يخبر كتابها أنها خير أمة رآها الوجود ، أى أن أفرادها فى هدايتهم أجل وأعظم من أفراد غيرها فى ذلك ، وإذن يصح أن نقول إن المهتدين به صلى الله عليه وسلم أكثر من المهتدين من كل الأمم كما وكيفاً ، ومعنى هذا أن جميع الأنبياء — وهم هداة الدنيا بأسرها — فى ناحية ، وهو صلى الله عليه وسلم فى ناحية ، لا يكافئهم فقط ، بل يرجح عليهم فى فضله الخاص به وفى آثار إرشاده المتعدى ، وزد على هذا أن العين لم تر عالما من هذه الأمة تعجب من سعة علمه والتفاف المؤمنين حوله ، واهتداء الضالين به إلا

والأصل فى هدايته هذا النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم ، وما نبغ مؤلف أنتج من المؤلفات الاسلامية ما أنتج مما امتلأت به الدنيا هدى ونورا إلا وبه صلى الله عليه وسلم ألف ، وإلى علمه صلى الله عليه وسلم يرجع علمه ، وببركاته عليه الصلاة والسلام وفق فيما كتب ، وما الآلاف والملايين من المجلدات العلمية بالمكاتب الاسلامية فى أنحاء المعمورة إلا من آثار علمه صلى الله عليه وسلم ، ولك أن تجهر بأن كل الأمم الماضية لم تنجب من العلماء النبلاء ما أنجبت هذه الأمة وحدها ، ومع هذه الكثرة ترى العالم الواحد من علمائها فيملأ عينك جمال مظهره و يفعم قلبك السرور بسعة علمه ، ذلك أنك إذا لمسته تلتمس منه شيئا مما آتاه الله وأنعم به عليه تفجرت ينابيع ذلك العلم من قلبه وجرت على لسانه تنهمر انهماراً حتى إنك لتوقن أن هذا وحده يكفى الدنيا كلها لأن تستنير بنور علومه ، فاذا أحببت نفسك أن تقف على شيء من خشيته لربه وحسن معاملته له عز وجل تبدت لك فيه حقائق يعجز فصيح لسانك عن الافصاح عنها و بلغ قلمك عن بيانها كما ينبغى لها ، وإذن لابد أن تقول فى نفسك إذا كان هذا أحد أتباعه صلى الله عليه وسلم فكيف كان هو عليه الصلاة والسلام ، لتعلم أيها الأخ الممتلىء تعظيما وإجلالا لعالم واحد عامل بعلمه من أمته صلى الله عليه وسلم أن الأرض لو ملئت كلها بأمثال هذا العالم ممن بلغوا حد الكمال

في نظرك ما ساووا نبيا واحدا في فضله ، ومع ذلك كل حضرات الأنبياء لا يساوونه صلى الله عليه وسلم مجتمعين كما قلنا ذلك سابقا ، هذا شيء نقوله نقرب لك قدره صلى الله عليه وسلم عند ربه وقدره في نفسه ، تلك النفس التي أودع الله بها ما أودع من كنوز الكمال في كل فرع من فروعه ، ولعلك بهذا البيان يسهل عليك أن تفهم كيف انقادت له الأمة العربية التي بينها بعث وقد كانت في الدرجة الأولى في تشعب الاهواء وتباين المشارب والأنفة والتيه والتمسك بما كانوا عليه من الاخلاق والعادات . لما كانوا ينطوون عليه من اعتقاد أن الزرقاء لا تظل وأن الغبراء لا تقل من يدانيهم في فضلهم ومزاياهم التي كانوا يمتازون بها عن سائر أهل الأرض ، نعم لقد كان هؤلاء العرب ( كالديناميت ) الذي إن مس انفجر فلم يبق ولم يذر ، وكانت قريش بين هؤلاء الناس بمنزلة القلب من البدن ، هكذا كانوا ينظرون اليها لرجحان في أشخاصهم وسمو في أفكارهم وقدم عهد في القيادة والسيادة وتفرد — مع ذلك — بجوار بيت الله الحرام وبالتشرف بخدمته وبتلقي الحجيج الوافدين عليه من كل صوب وحدب ، فانظر كيف يكون هؤلاء في العظمة عند أنفسهم وانظر كيف يكون انقيادهم واتباعهم الاتباع المطلق لواحد منهم بينهم ولد وتحت اسماعهم وأبصارهم نبت وترعرع لقد ناوأوه صلى الله عليه وسلم بكل ما أمكن لهم من أنواع المناوأة

لا يوما ولا شهرا ولا سنة ولاعشر سنين بل ثلاث عشرة سنة ،
واخيراً صمموا على اغتياله بطريقة جهنمية فى غاية الاحكام ،
فأخرجه ربه من بينهم ثم رجعه اليهم فاتحا قاهرا ، فى إمكانه
بسهولة أن يبيدهم جميعا لما هم عليه من كفر شنيع ولسالف
معاملتهم له عليه الصلاة والسلام ، لم يفعل ذلك صلى الله عليه
وسلم ، وكل الذى كان منه أن قال لهم — لما اجتمعوا حوله
يسمعون كلمته فيهم — (اذهبوا فأنتم الطلقاء) قارنوا هذا الكلام
الذى لا نظـــير له بما كان منهم من لؤم لا نظير له كان منهم له
ولأهله ولأتباعه ولكل من ينتمى اليه فرأوا نفسا ماهى كنفوس
البشر ولطفاً يصغر بجانبه كل لطف فلم يسعهم الا أن يتسابقوا
إلى الدخول فى دينه أفواجا وتبعهم على ذلك العرب والعجم
تبعوا العرب ، وانتشرت انوار دينه فى أنحاء المعمورة فجأة كما
ينتشر نور الكهرباء فى مدينة تحول اليها تيار ذلك النور بعد فتح
ينبوعه ، ولازال ينتشر فى كل جهة وصلت اليها أخباره حتى
اليوم ، إن أولئك العرب الذين ذكرنا من صفاتهم ما ذكرنا لم
يؤمنوا به صلى الله عليه وسلم أى إيمان ولم يحبوه أى محبة وإنما
آمنوا به إيمانا ملأ قلوبهم وتخلل شغافها فأحبوه حبا وصل
بهم إلى أن كانوا يفتدونه بأموالهم وأولادهم وآبائهم وأرواحهم
مرتاحين لذلك كل الارتياح بل ومتلذذين به لذة ملكتهم أبدانا
وقلوبا ، لا بل لم يقتصر حبهم على شخصه الكريم بل تعدى إلى

كل أثر من آثاره ﷺ ، فكانوا يأخذون عرقه ﷺ - وكان أطيب من المسك - فيضعونه فى أوعية يتدهنون به ويدهنون به أبناءهم ، وكان ﷺ لا يتفل بينهم تفلة فتسقط على الارض بل كانوا يتلقونها بأكفهم يدلكون بها أبدانهم تبركا بها ، وما توضأ أمامهم ونزل ماء وضوئه على الارض بل كانت تمتد أيديهم إلى ذلك الماء يتناهبونه ويمسحون به وجوههم وأجسامهم لأنه مس بعض جسمه الشريف ﷺ فصار به من البركة ما لا يعلم قدره إلا الله وهذا واللذان قبله فى الصحيح ، بل شرب بعضهم بوله ﷺ وعاد عليه من بركاته ماعاد ، لا بل شرب آخر دمه عليه الصلاة والسلام وبشر بما ترقص له الارواح طربا ، وكلاهما ثابت أيضاً ، ولقد ظفر سيدنا خالد بن الوليد رضى الله عنه بشعرات من شعر ناصيته ﷺ فوضعها فى قلنسوته فكان النصر حليفه أينما توجه ببركات تلك الشعرات؛ وهو كالذى قبله ثبوتاً ، وليعلم إنى لا أذكر ما لا ثبوت له إن شاء الله خرجته أم لم أخرجه ، وما إلى ذلك من الحوادث التى تنطق بأعلى صوتها بأن حبهم لآثاره ﷺ بلغ المنتهى ، وأظنك لا تتردد فى أن هذا كله تابع لحبه ﷺ ، وإنى أرجو أن يعذر القارىء الكريم أولئك الاصحاب الكرام فى نحو ما حكينا عنهم، فانا اليوم إذا رأينا رجلا وقع فى نفوسنا أنه من أولياء الله نلتف حوله ونتزاحم على التبرك به، وتقبيل يديه ، بل وقدميه، والتمسح

بثيابه ، ونفعل معه فوق ذلك من أنواع الكرم ما يمكننا ومن كبار السعداء فى نظرنا من يتقدم إلى خدمته حتى ولو بتقديم نعله اليه ، ونسافر الأيام والليالى لنزوره ، ولو أمكننا أن نقضى كل حياتنا فى التفانى فى خدمته لكان ذلك منا مع الاغتباط الكثير والفرح العظيم ، ومع ذلك نعتقد أنا مقصرون فى حقه لم نقم بكل ما يناسبه وينبغى له ، هذا فعلنا مع من يعرف بيننا بالدين القيم والسيرة الطيبة ، وليس ذلك بكثير عليه لأنه من أحباب ربنا ، ولا ينبغى أبدا أن يعامل أحد أحباب الله بأقل من هذا ، لأجل إرضاء مولانا الذى ذلك الولى محبوبه ، نعم نفعل ذلك لعله تعالى يحبنا لحبنا حبيبه ، فان المعروف المسلم أن محب المحبوب محبوب ، ودرجة محبة الله للعبد درجة من السمو بمكان عظيم ، فهل يصل المرء اليها دون أن يبرهن على حبه لمولاه ، إذن ليس بغريب أبدا أن يحب الصحابة رسول الله ﷺ وآثاره الحب الذى أشرنا إلى قدره ، فان أولياء العالم الاسلامى من أول أن خلق الله الدنيا إلى أن تنتهى ، بل ومعهم الانبياء والرسل والملائكة ـ كل هؤلاء ليسو بالدرجة التى له ﷺ عند ربه ، وإذا كان هذا قدره عليه الصلاة والسلام فمعذورون والله أصحابه ألف عذر فى وصولهم فى حبه إلى القدر الذى أشرنا اليه ، وأحب أن يكون على بال القارى الجليل أن أولئك الصحابة رضى الله عنهم كانوا عربا ، والعرب

معروف فيهم الذكاء المفرط الذى لاتخفى عليه الأمور مهما دقت ، وأضف إلى ذلك نور الاسلام الذى زاد بصائرهم ثقوبا ونفوذا ، فلولا أنهم رأوا فيه ﷺ ما يستحق ما كانوا يفعلون ـ ما عاملوه تلك المعاملة التى روينابعض ما يدل عليها ، وإذن لا يخطر على بالك غير ما ذكرنا مما قد يتصوره الاغمار فاسدو القلوب من أنهم رضى الله عنهم عاملوه بما هو فوق مقامه ، ولو كان الامر كما يقولون ما أقرهم ﷺ على ذلك الغلو وهو منهى عنه ؛ على أنى أستطيع أن أقول إنهم رضى الله عنهم كانوا يرون أنفسهم بعيدين عن كل ما يجب له من التوقير والتكريم وهم يعاملونه تلك المعاملة ، وفى سيرتهم ما يدل على ما نقول ، فان بعضهم رأوه جديرا بأن يسجدوا له وهموا بذلك مستشيرين فيه ، فأفهمهم عليه الصلاة والسلام أن السجود لاينبغى له وإنما ينبغى لله وحده ؛ ومن فرط جلاله ﷺ فى نفوسهم وقف أمامه ﷺ أعرابى وهو يرتعد هيبة له فخفف عنه ﷺ ما كان يجد وأخبره أنه ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ، ﷺ ما كان أعظم تواضعه وأشد رحمته بأمته ، وما لأولئك العرب النبلاء لا يبلغون فى حبه ﷺ وتعظيمه المنتهى وهو فى كل كمال يليق بالمخلوق اليه المنتهى ، يرون ذلك بأعينهم لا يخبرهم به مخبر ، وهكذا والله يجب أن يكون مرشد الناس فانه دائما موضع أسماعهم ومطمح أبصارهم ؛ فاذا سمعوا

منه أو رأوا ما ينافى الكمال ساءت عقيدتهم فيه وقل نفعهم به .. وإن لم يجاهروه بالاعتراض عليه أضمروا له ذلك ، وكيف ينفع المرشد تومافى قلوبهم مافيها من انتقاده والاعتراض عليه، أما إذا كان بعيداعن النقد بما هو عليه من كمال أعجب الأبصار وأحبته القلوب ؛ ومتى أحبته القلوب كانت فى تلهف لسماع كلمة من محبوبها ؛ فاذا ما وصلت اليها أودعتها الصميم منها ؛ ولعلها لاتسمح أبدا أن تفرط فيها وقد وصلت اليها من حبيبها ، وكلما كان المرشد أكمل كان أحب وكان النفع به أكثر ، ولذلك كان بعض كبار المتقدمين من علماء هذه الأمة يدعو ربه دائما وهو فى زمن الطلب أن لايريه فى شيخه نقصا ، كان يدعو بهذه الدعوة ليدوم حبه الكامل لأستاذه فيدوم له نفعه الكامل منه؛ وبهذا يوشك أن يكون عالما من كبار العلماء ، وقد كان له ذلك وملأ الله بعلمه الدنيا رضى الله عنه .. وأظنك من هذا فهمت السر الذى من أجله كان الصحابة بحار علوم . فان رسول الله ﷺ كان أكمل الداعين الى الله من غير شك، وكان أعلم المعلمين على الاطلاق، فكان حب أصحابه له أكمل حب ، فكان نفعهم به أكمل نفع ؛ وانظر أنت إذا كان هذا نفعهم كان بأى قدر علمهم؛ إن هذا يدل على أن علمهم كان عظيما وعظيما : بل كان لايوازيه علم فى أمة من الأمم كما قدمنا ذلك ، وعلم هذا قدره لابد أن يستتبع أثره وهو العمل به ؛ إذن كان عملهم بالعلم

أكمل عمل يصدر من أمة ؛ ولهذا السر كانوا خير أمة أخرجت للناس أى فى علمهم وعملهم ؛ وإذن لا بد أن يكونوا أرفع الأمم درجات يوم القيامة فى دار الكرامة وهو مما لا خلاف فيه

ولا يظن القارىء أنه ﷺ بانتقاله الى الرفيق الأعلى فقد صفة التعليم فلا يكون أحد بعده له صفة الأخذ عنه ﷺ — لا يظن أحد هذا فان كتابه الذى كان يعلمه بين أيدينا ، وكذلك سنته عليه الصلاة والسلام التى بينت ذلك الكتاب ، وإذن كل فرد من أفراد من يعانون تعلم الكتاب والسنة منا وممن يأتون بعدنا وممن سبقونا يختلفون فى استفادتهم منهما باختلاف حبهم له ﷺ ، فكلما كان المتعلم أشد حبا له ﷺ كان أكثر علما من الذى يقل عنه فى ذلك الحب ، والعمل تابع للعلم ، والنتيجة اللازمة لهذا أنه ليس لنا عالم فى هذه الأمة وصل اليه خير من علم أو عمل إلا ومن طريقه ﷺ وبواسطته وصل اليه ، فهو ﷺ أستاذ جميع العلماء ومرشدهم ومعلمهم ، ولولاه ما وصل إلى أحد شىء لا من علم ولا من عمل بل ولا وصل اليه ذرة من إيمان ، فانه ﷺ القاسم لما يفيض ربنا على عباده من نعم ، ومعنى هذا أنه لم يسعد أحد فى دنياه ولا فى أخراه إلا وبه صلى الله عليه وسلم سعد ، ليعلم هذا حضرات إخواننا المؤمنين ليعرفوا مبلغ فضله ﷺ عليهم ، والمعروف فيهم أن أحدهم يقف موقف العاجز عن مكافأة من يسدى إليه أى معروف

ويكثر من الدعاء له ومن عبارات الثناء عليه ، والشكر له ، يجد نفسه مرغما على حبه وعلى الميل إليه والوقوف فى صفه إن كان فى سراء أو فى ضراء ، وكلما تذكر ذلك المعروف كلما وجد نفسه بعيداً عن مقام المكافأة ، وغير بعيد أن يعفو ويصفح عنه إذا أساء اليه بعد ذلك ؛ ولا يجرؤ على مكافأته على الاساءة . ولعل هذا وجه من يعد الاحسان نوعا من الاسترقاق . وإذا كان هذا حالنا مع من عمل معنا شيئاً من المعروف الذى لا يلبث أن ينقضى وتنقضى آثاره فماذا ينبغى إذن أن يكون عليه العاقل مع من غمره فى الدنيا والآخرة باحسانه بحيث لا يجد نفسه فى خير دنيوى أو أخروى إلا ومن يده تسلمه وبفضله وصل إليه وبسببه تمتع به ، أنا لا أدرى ماذا أقول فيما ينبغى أن يكون عليه المؤمن معه ﷺ ، إن من يقتل وتذهب حياته فى سبيل الدفاع عنه ﷺ لا يمكن أبدا أن يؤدى كل حقه عليه ، ولو دقق النظر هذا المقتول لرأى موته هذا من أياديه الضخمة ﷺ عليه ، فانه الشهادة التى ليس لنا مقام أرفع منها إلا مقام الصديقين والرسل ، وذلك فى غاية الظهور ، لكن ليس معنى هذا إنكار أن هذا المقتول قام بأى مكافأة وإنما معناه أنه مع كونه فعل آخر ما يمكنه فعله فى المكافأة لم يقم بكل المتجه عليه من حقه صلى الله عليه وسلم ، وقيامه هذا ببعض المتجه عليه جلب له مصلحة أبدية ليس فى إمكان مخلوق تقديرها ، وعجيب

والله شأن النبي ﷺ في هذا . إذا أراد أحد أن يكون له عنده ﷺ يد مهما ضخمت ولو كانت تقديم الحياة — تولى ربه عنه مكافأة صاحب اليد بما هو فوق يده ، لا نقول بملايين المرات ولا بدشليونا تها . وإنما بقدر لا يحصيه العد ولا يضبطه الحساب ، وأين من الباقي السرمدي — وهو فوق تصورات العقول — شيء فان على كل حال ، ثم هو — مع كونه فانيا — منغص بأنواع المنغصات كالحياة التي ضربنا المثل بها ، هذا من خالقنا ومولانا معناه إرغام النفوس على حبه ﷺ إرغاما اختياريا ، وحملها حملا عنيفاً مرغوبا — على حبه ﷺ الحب الذي ينسى المرء معه نفسه وحياته وكل شيء يتصل به ويفنى في سبيل وداده والقيام بأنواع محبوباته ﷺ ، لقد عرف قدره حقا ﷺ أناس من سلفنا كنت بينما انت تتكلم مع أحدهم وهو مقبل عليك إذ تراه فجاة تغير وجهه وانتفض وأصبح في حال لا يصلح معه لسماع حديث ولا لاقبال على مخلوق ، فاذا سألت ماذا جرى حتى أحدث ذلك في صاحبك أجبت بأن النبي ﷺ ذكر وسمع هذا الصاحب ذكره ، ولقد لسعت العقرب بعضهم رضى الله عنهم ست عشرة مرة وهو يقرأ حديثه ﷺ فصار يتلوى ويتلون وجهه ولم يجرؤ أن يقطع كلامه ﷺ ويشتغل بالبحث عنها وإزالتها عن نفسه ، إن هؤلا من غير أصحابه ﷺ ، وأما أصحابه فقد عرفت مما تقدم شيأ من آثار حبهم له عليه الصلاة

والسلام ، وخلاصة القول أن حبه ﷺ ميدان يتسابق فيه أفراد أمته أوائل وأواخر كل يحبه على قدر معرفته به وبما أودع ربه فيه من كمال

## ٤ — الثبات على المبدأ

نحن اليوم نحب الرجل الذى يتصدر للقيادة والارشاد اذا رأيناه ثابتا على المبدأ الذى يدعونا اليه ، فان هذا الثبات يفهمنا منه أنه مخلص لمبدئه جاد فى الدعوة اليه ليس بهازل ، لم يقل إلا ما يعتقد أنه جدير بأن يدعى اليه ، اما إذا دعا اليوم الى غير ماكان يدعو اليه أمس ، ودعا غدا إلى غير ما كان يدعو اليه اليوم - فهذا يسقطه عندنا ويجعلنا نعتقد أنه مذبذب صاحب هوى يتلون بألوان أهوائه ، وحضرة نبينا ﷺ كان فى هذه الخليقة بالدرجة التى لا يلحقه فيها لاحق ، فلقد دعا قومه إلى التوحيد ونبذ ماهم عليه من وثنية ولاقى فى سبيل هذه الدعوة مالاقى من الأهوال وما ثناه ذلك عن موقفه قيد شعرة ، ولقد عاهدت قريش بعضها بعضا على مقاطعة أهله ﷺ ومن ينتمى اليهم ، ونفذوا هذه المعاهدة بكل دقة ، وكانت تقتضى أنهم لا يبايعونهم ولا يناكحونهم ولا يجالسونهم ولا يحادثونهم ولا يصالحونهم أبدا ولا تأخذهم بهم رأفة ، أحدثت هذه المعاملة شدة فى العيش على هذه الأسرة التى لا تسامها فى الدنيا أسرة

حتى وصلوا لدرجة أنهم كانوا يأكلون ورق الشجر إحياء لمهجهم ، وكان يراد منهم بهذه المعاملة أن يسلموه ﷺ لقريش تقتله ، فلم يسلموه ، ولم يغير هو ﷺ من موقفه شيئا لا قليلا ولا كثيرا ، مع أن الموقف كان موقف موت له ولكل مناصريه ، وأهول من هذا ذهاب عظماء قريش لعمه أبى طالب وتوعدهم له بالحرب إن لم يكفه ﷺ عن دعوته ، وكان من أثر هذا التهديد أن دعاه عمه وقال له ( يا ابن أخى إن قومك قد جاءونى وقالوا لى كذا وكذا فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق ) وهذا معناه خذلان عمه له أمام أولئك الاعداء ، فان اعترافه أمامه أنه لا يطيق حرب قريش يتضمن تركه له وتخليه عنه أن هو لم يكف ، وهذا معناه الموت المحقق ، وهل زلزله هذا التهديد البالغ النهاية فى الشدة ؟ وهل أضعف من عزيمته شيأ ؟ إن خبر ذلك عند قوله ردا على عمه ( والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ) ، معنى هذا أنه استهان بالموت ولم يبال بخذلان نصيره الوحيد وصرح ﷺ له أنه لا يترك ما يهدده بالموت من أجله ، وسد عليهم باب الترغيب له ليترك ماهو عليه . فأقسم بالله ربه أنه لا يتركه ولو فعلوا معه من المرغبات مستحيلا هو أن يضعوا الشمس فى يمينه والقمر فى يساره ، ثبات أين منه ثبات الرواسى ،

وعزيمة تتضاءل بجانبها عزيمة الدهر ، وما إلى هذا ينتهى ثباته ﷺ ، فقد تمادى على دعوته وزاد نشاطه فيها ثم زاد لحد أنه كان لا يتأخر عن إعلان الحروب على أعـــدائه إذا اقتضت الدعوة ذلك ، ولا يخفى أن الحروب لا يأمن فيها أحـد من أحد المتحار بين أن يصاب إصابة قاضية على حياته، فالذى يتعرض للموت من وقت لآخر حتى آخر حياته الدنيوية فى سبيل دعوته دون أن تزحزحه أهوال الحروب عن مبدئه قدر أصبع للوراء والدنيا كلها أعـداؤه — صغير عليه أن يقال فيه انه يستحق فقط ان يحب ، ولا يؤاخذنا حضرة القارىء فى تعبيرنا فى هذا المقام بلفظ الثبات على المبدأ ، وانا اضطررنا إلى هذا التعبير اضطرارا تقريبا للمعنى المقصود إلى الأفهام بما اعتادته اليوم ، ولو أردنا أن نعبر التعبير الذى يساوى المعنى لقلنا إنه ﷺ أقيم من سيده ومولاه فى مركز فقام فيه كما أمر ولا إرادة له مع إرادة ربه، وعلى العين والرأس مايفعل المولى الحـكيم العليم موت أو سواه نصر أو غيره

## ٥ — العـــلم

ومن الصفات التى يجب المرشد من أجلها صفة العلم بما يدعو اليـه عالما لا يضيق عن حاجـة المدعوين ، ولذلك نجد من أنفسنا الاجلال الـكثير لمن نشعر منه بسعة الاطلاع

بحيث يروى بزلال علمه كل من ورد حياضه فى ظمأ إليها ، وكلما رأينا بحر علمه أعمق بحيث لا يتكدر باختلاف دلاء النازعين ممن حوله من العطاش كلما زدنا حبا له ، وما تفاوت حب الناس للعلماء إلا لتفاوتهم فى العلم ، وإن من مظاهر إجلال العلم ما تراه فى كل زمان من ملوك الدنيا مهما عظموا ، فان أحدهم إذا علم بذوى البراعة العلمية أدناهم ثم أدناهم حتى يؤمرهم على نفسه ، عن علمهم يأتى وعن علمهم يذر معتزا بهم وفخورا حتى لا يتركوا بفعلهم هذا شكا فى نفوس أممهم ان العلماء ملوك الملوك ، وأولئك الملوك من رعاياهم ، وما ذلك من الملوك الا إسناد الأمر لأهله ، فان العلم هو الأمير ، خصوصا إذا دجت ظلمات المشكلات ، فانه لا يكشفها ويبدل ظلماتها نورا غير أولئك البدور ، لاحرم الله الوجود منهم ، وإذا كان هذا حبنا للعلماء لعلمهم فكيف ينبغى أن يكون حبنا له ﷺ وعلم جميع العلماء من أول الدنيا إلى آخرها بل ومعهم الأنبياء والرسل بل ومعهم الملائكة أجمعون — دون علمه عليه الصلاة والسلام ، فان من علومه ما أودعه له مولاه فى كتابه الذى يقول فيه ( تبيانا لكل شىء ) ( مافرطنا فى الكتاب من شىء ) وهذا الكتاب بلا شك فيه من العلوم كل ما كان بكل الكتب السابقة لجميع الأنبياء صلى الله عليهم وسلم وزيادة ، فان ربنا يقول فيه ( مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه )

ثم هو ﷺ أعلم من سيدنا آدم دون أدنى توقف وسيدنا آدم أعلم من جميع الملائكة بدليـــل قصته معهم ، ثم هو معروف أنه أرسل إلى الناس كافة وغيره من الأنبياء كان يرسل إلى قومه خاصة .والتناسب فى العلم بين الرسول والمرسل اليهم أول ماتنظر اليه الحكمة ، ولعل الأمر فى علمه ﷺ يدنو إلى فهمك اذا سمعت أنه رقى المنبر يوما وهو غضبان من كثرة ماكانوا يسألونه وقال لجميع الحاضرين من أصحابه ( لاتسألونى عن شىء إلا أنبأتكم به ) وهو فى الصحيح ، فانظر إلى قوله ( شىء ) وهو نكرة فى سياق النفى ، فان المعروف فى مثل هذه النكرة أنها تعم كل شىء ، وهو ﷺ لاينطق عن الهوى ، فمحال ان يقول ماليس واقعاً ، والنتيجة لهذا فوق تصور المتصورين فيسهل معها اليقين بأن علمه ﷺ فوق علم كل العالمين ﷺ ،ولعله نظر إلى هذا من قال يخاطبه ﷺ — ومن علومك علم اللوح والقلم — وليس معنى قولنا ( كل شىء ) أن يفهم باطلاقه،فان هذا هو علم الله وحده ولايعلم أحد ما يعلم الله، وإلا كان إلها آخر،بل ولا يجوز أن تعقد نسبة بين علم الله وعلم مخلوق ، وكثير جداً لو قلنا إن علم العالم كله بالنسبة لعلمه تعالى كقطرة صغيرة من بحار الدنيا كلها أو كرملة من رمال جبال الدنيا جميعها ، ثم هو بعد ذلك علم ليس بذاتى وإنما منحه ربنا وخالقنا وخالق كل نعمة علينا ، فهو إذن على قلته — منه تعالى وإليه ، وأنت لايخفى عليك أن العقـل الذى يعقـل

العلوم ويعيها منحة من منحه عز وجل ولوشاء لسلبها فنصبح مثلنا مثل البهائم لانعى شيئا ، وإنما المعنى كل شيء يسأل عنه البشر ويليق بهم ويخطر ببالهم من معلومات الدنيا والآخرة

وفى الصحيح أنه ﷺ خطب يوما كاملا من صلاة الفجر إلى صلاة المغرب لم يسكت فى كل هذا الزمن إلا وقت صلاة الظهر والعصر ، أخبر فى هذه الخطبة بكل ماهو كائن إلى يوم القيامة أى من الأمور الجسام التى تكون فى هذه الأمة ، عرف ذلك من عرفه ونسيه من نسيه ، والله أعلم بما يدخل من المغيبات والعلوم فى هذا الذى يكون إلى يوم القيامة ، وهذا كتاب ربنا يقول ( فأوحى إلى عبده ما أوحى ) ، أليس معى حضرة القارىء فى أن الذهن يقصر عن تصور ما تضمنه هذا الابهام من العلوم التى أوحاها ربنا إلى هذا العبد الذى لاعظمة فى العبيد فوق عظمته ﷺ ، وهذا فقط فى مقام واحد فى ليلة الاسراء فكيف بما أوحاه تعالى إليه فى غير هذه الليلة ، وهل يمكن أحداً أن يحدد لى آيات ربنا الكبرى التى رآها ﷺ فى تلك الليلة ولم يزغ بصره ولم يطغ حين رؤيتها ، بل رآها حقاً كما هى عليه ، وهل فى إمكان أحد أن يشير لنا إشارة نفهم منها مبلغ ما أطلعه مولاه عليه حينما وصل تلك الليلة إلى المستوى الذى سمع فيه صريف الأقلام - ومبلغ ما كشفه له عز وجل لما أطلعه على الجنة والنار ، ولما أن فضل ربنا عليه بهذا القدر فيما علمه له

من العلوم — امتن عليه تعالى بذلك وعظم من شأنه إذ يخاطبه فى كتابه بقوله ( وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ) وأى عظمة تدانى ما ذكرنا ، ومع ذلك كله قال له تعالى آمراً ( وقل رب زدنى علما )

هذا أمر منه تعالى له ﷺ أن يطلب منه أن يزيده علما فوق ما علمه له ، وقد طلب ﷺ ذلك قطعا وأعطاه سبحانه وتعالى ما طلب ، فانه ليس بمفهوم أن يأمره ربنا أن يطلب منه كذا فاذا طلبه كأمره لا يعطيه له . نعم ليس بمعقول هذا ، وإذن كيف كان علمه ﷺ والحال فيه ما ذكرنا ، الجواب أن من أعطاه هو وحده الذى يعلم ماذا أعطاه ، وإذن ليفتنى حضرة القارىء فى كيف ينبغى أن يكون حب أحدنا له ﷺ من هذه الناحية ناحية العلم ، أما أنا فتتوارى أنى عاجز العجز الكامل من أن أقدر ما يستحق ﷺ من الحب ، ومن استطاع تقدير ذلك فأمامه الميدان

## ٦ — الحلم

ومن الصفات التى تجل الإنسان من أجلها كل الاجلال أن نراه حليما واسع الصدر يقابل السيئة بالحسنة وتلتهب عليه نيران الغضب من مناوئيه فيفرغ عليها من زلال عفوه وصفحه ما يدعها وقد انطفأت فى صدورهم ولم يبق منها أثر ، ويقلب

بوقاره وسعة صدره بغض المعتدين عليه حبا ـ وكدر نفوسهم صفاء ، وهـذا الخلق يكون أجمل إذا تحلى به المرشدون الذين يعالجون إصلاح الناس ، فان المرشد إذا كان حليما يغضى عن هفوات المسترشدين ويتحمل جهلهم وسفههم . وهم إذا عرفوا منـه ذلك يجتمعون به ويلتفون حوله ، وبذلك يتمكن من نثر جواهر آدابه بينهم فيلتقطونهـا هادئين مطمئنين ـ ويخف عليهم ـلذلك الحلم ـ أن يعاودوا مجلسه ثم يعاودوه ، وبهذا ينتفعون به وينتفع بهم ، أما ضيّق الصدر فلا ينفع الناس أبدا ، لأنه بسماع كلمة لا تعجبه من حوله يهيج ويقوم ويقعد ويظهر من جفائه وغلظته ما يؤلم صـــاحب الكلمة ، فاذا رأى غيره ذلك هابه وجوّز أن يلاقيه بما لاقى ذلك الغير

فاذا تكرر منه ذلك ـ بمقتضى طبعه الحديد وصدره الضيق ـ تفرق الناس من حوله ورأوا من الصواب أن يحافظوا على كرامتهم بالبعد عن هذا الذى يهددهم بسفهه لأى سبب ، وهذا معناه عزل نفسه عن وظيفته وحرمان الناس من النفع به وحرمان نفسه من الانتفاع بهم ، وقد يوغر صدور الناس بما يسمعهم من عنفه وشدته فيقضون عليه القضاء الأخير ليستريحوا من غلظته ، وهو الذى قتل نفسه بخلقه السيء ، إذا علمت أن الحلم بهذا الجمال وأن السفه بذلك القبح — فهمت بلا أدنى جدال أن ربنا الحكيم العليم لا يرسل إلى خلقه رسـولا إلا وهـو

ملبسه من الحلم أسبغ وأجمل لباس ، فان وظيفته — كداع للناس إلى الله — تقتضى هذا الحلم ، وليس من المعقول أبدا أن يرسل الله رسولا يكون بمقتضى طبعه معزولا عن أداء الرسالة، هذا نقوله فى أى رسول أرسله ربنا إلى الخلق ، فحظ الرسل من هذا الجمال جمال الحلم أوفر جمال وأبهجه ، وانما خلقهم الله تعالى هكذا ليقبل الخلق عليهم ويتبعوهم تقديراً لهذا الجمال الذى لا يعادله جمال ، وإنى أرجو القارىء ان يرجع إلى نفسه وينظر ماذا ينطوى عليه من الحب لرجل عادى يرى عليه وقار الحلم أمام رجل سفيه ، إنى موقن أنه يتمنى أن يحمله فوق رأسه أو يضعه فى سويداء قلبه لو أمكن ذلك إجلالا له وتعظيما ، وإذا كان ذلك حبك ياأخى لرجل حليم عادى فكيف لو رأيت الأنبياء وما طبعهم ربهم عليه من حلم لا يخطر بقلبك مايدانيه، إنك لو رأيتهم لاندفعت فى تيار أصحابهم تفتديهم بروحك وأهلك ومالك مأخوذا من نفسك بقوة ماتنطوى عليه من حبهم عليهم الصلاة والسلام، وإذا كان ذلك حالك مع أى رسول فكيف يكون حبك لصفوتهم وسيدهم وسيد كل سيد فى هذا الوجود ، إن وصفه ﷺ فقط بالحلم أحلى وألذ ما تسمعه الآذان وأبهج ما تمتع به البصائر أبصارها ، فكيف لو رئى مصداق هذا الوصف ، وان شئت فاسمع قطعة من حديث رواه البيهقى والطبرانى وابن حبان والحاكم ( يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجهل

عليه الا حلما ) هل سمعت الدنيا من أولها مثل هذا الوصف ؟ إن الجواب سلب قطعاً ، ومن هذا الذى يجهل عليه الجاهل فيحلم عليه فاذا زاد فى جهله كان عنده من الحلم ما يكافىء تلك الزيادة فى الجهل وهكذا كلما اشتد الجهل اشتد الحلم ؛ أن هذا معناه أن الاساءة انقلبت معه ﷺ من سبب غضب الى أن صارت سبب رضى ورحمة ولطف ، ومن هذا الذى لا يملكه كله حبه ﷺ ويدفعه دفعا إلى الايمان به ﷺ وهو يرى نفسه كلما اشتد فى سفهه عليه ﷺ كلما اشتد هو فى حلمه عليه ومقابلته على جهله ووقاحته بالعفو الجميل والصفح المطلق الذى لا عتاب معه ولا تثريب ، إن من لا يهيم بحبه ﷺ ويبادر إلى الايمان به والحال ما ذكرناه صفوانى القلب جلمودى الفهم لم يشم لمكارم الأخلاق رائحة ، ولذلك أنا أقول إن الكفار من أمته ﷺ لا يشبههم الكفار من أى أمة أخرى بل هم شر الكفار على الاطلاق - الا فرعون وقومه - لما أنهم كفروا وأسباب الايمان يرونها ساطعة سطوعا لا يدانى ولا يطاول ولا يمترى فيه أى ممتر - كما أن المؤمنين به ﷺ لا يساويهم مؤمن من أى أمة ، لما أن الأسرار التى وصلت اليهم من معاشرته ﷺ لا تماثل - والخيرات التى عادت عليهم من العمل بدينه أكمل الاديان لا تقارب ، ثم إنه معروف بين الملوك أن الجرأة على شخص الملك أو الخروج عليه لاستلاب ملكه أو انتهاك حرمة

حرمه من الأمور التى لاجزاء لها إلا الاعدام بلاتردد ، ولا تحتمل قبول شفاعة أبدا ، فان ذلك عندهم منتهى الجرائم ، هذه قاعدة الملوك لكن سيد الملوك وسيد أهل الدنيا والآخرة جميعا هم كثير من الناس منفردين ومجتمعين أن يقتلوه ﷺ ، وقبض عليهم وقدموا اليه ﷺ ليقتلهم ويجعلهم عبرة لغيرهم فوسعهم حلمه ﷺ وعفا عنهم ولم يمسهم أدنى أذى ؛ ولقد جىء له يوما برجل وقيل له إنه أراد أن يقتلك فبادر ﷺ بتأمين الرجل وإذهاب خوفه ومحو أى أثر للذعر من نفسه فاستقبله بقوله له ( لن تراع لن تراع ) إن هذه والله النبوة حقا ، بل هى المثل الذى لايماثل بين الخلق فى الحلم والرحمة ، وقد تقدم فى هذه الكلمة قوله ﷺ لقريش (اذهبوا فأنتم الطلقاء) قال ذلك بعد أن دخل مكة فاتحا قاهرا مع أنهم مكثوا ثلاث عشرة سنة فى حرص عظيم على القضاء عليه ؛ وبيتوا للوصول إلى ذلك مابيتوا ولم يصلوا إلى مقصودهم الذى كانوا متهالكين على تحقيقه ، إن عفوه ﷺ عنهم بعد كل ذلك تعجز أفكارنا عن تصوره فى باب الكرم وأحدنا ليس ببعيد عليه أن يريق دم من قال له كلمة لاترضيه ، نعم أقول كلمة ولا أقول مد يده اليه ، أو رفع عليه عصاه ، أو مد إليه سلاحه هذه ذنوب عندنا لاتسعها دائرة العفو ؛ أما الكلمة فنقوم لها ونقعد ونقول للمتكلم بها جرحت إحساسنا ؛ غيرت شعورنا ؛ أهنتنا ؛ وما إلى ذلك من الكلام الذى يدل على عجرفة وأنفة

لاحد لها وتكون النتيجة ماقلنا أو قريبا مما قلنا ، أما العفو المطلق فبعيد جدا وبعيد ؛ بل نحن لانعرف هذا العفو. قدرت قريش ذلك العفو حق قدره؛ وفهموا أنه لايكون أبدا من إنسان عادى فدخلوا فى دين الله أفواجا موقنين أنهم يؤمنون برسول الله حقا كما أشرنا إلى ذلك سابقا، ومن أراد أن يقارب من تصور ما آتاه مولاه من حلم فليتتبعه فى كل غزواته وينظر هل مد يده إلى واحد من اعدائه وقتله؛ ان المحفوظ عنه ﷺ أنه مافعل ذلك إلا برجل واحد ولم يمد يده اليه إلا بعد أن رآه شاهرا عليه يهدر هدير الفحل يقول (لانجوت إن نجا محمد) هذا وحده الذى قتله ﷺ ، وما قتل غيره قط مع أنه نازل أعداءه فى غزوات كثيرة ، والمرء فى الحروب يكون بحالة غير عادية . حالة لو استطاع معها أن يحصد كل أعدائه حصدا فى لمحة ماحسن عنده أن يتأخر عن ذلك ، ولو تأخر كان موضع اللوم القارس من نفسه ومن غيره ، لأن تأخره معناه تعريض نفسه للقتل، ويكون المرء فى الحروب نارا ملتهبة لا تبقى ولا تذر اذا علم أنه وحده المقصود لكل اعدائه كما هو الحال فيه ﷺ - وأن كل من عداه من أنصاره إنما يقصدون بالايذاء من أجله ، أن ذلك العفو منه ﷺ ينادى بصوت يسمعه أهل السموات والأرض أنه والله رحمة الله تعالى للعالمين، وهل فى الدنيا ذو عقل يلومنى إذا قلت ان صغيرا عليه ﷺ - وهو كما نصف - أن نقول إنه

يستحق المحبة فإن هذه العبارة فيها ما فيها ، نعم والله ان نفسي ترى أن عبارات التقدير له ﷺ عبارات ضيقة لا تفي أبدا بتحديد حقيقته ﷺ

## ٧ ــ الشجاعة

ومن الاخلاق التى يحتاج إليها المرشد حاجة شديدة خلق الشجاعة الذى عرفناه فى رسالتنا ( شجاعة رسول الله ﷺ ) بأنه هو الاقدام تحت إشراف الحكمة للدفاع عن النفس أو أى عزيز لديها ، وحاجة المرشد إلى هذا الخلق من ناحية أن وظيفته مواجهة الناس بالتنبيه على مايصلح شأنهم من لزوم صالح أو مفارقة فاسد ، فاذا لم يكن شجاعاً مقداما هاب أن ينبه الناس ذلك التنبيه وذلك ينافى الارشاد ويأتى على بنائه من أساسه ولما كان حضرة نبينا ﷺ سيد المرشدين وصفوة الدعاة إلى الله كان سيد الشجعان ، ولقد أفردت هذا المعنى فيه ﷺ برسالة خاصة سميتها بالاسم المذكور ، فمن أراد أن يشبع منه فعليه بتلك الرسالة ، وحسب القارىء الكريم هنا ان يعلم أن العرب الذين بينهم بعث ﷺ كانوا من الكبرياء والعظمة بدرجة لاتسمح لهم أن يقبلوا أن يرشدهم مرشد لفهمهم فى أنفسهم أنهم سادة المرشدين وأعلم العالمين وأفضل الخلق أجمعين ؛ ومع ذلك صدع فيهم ﷺ بما أمره

ربه دون أى تهيب، وتمادى على ذلك حتى آخر
نفس من أنفاسه الدنيوية ؛ ولا يظن القارىء أنه كان يتكلم
معهم فى أمر هين سهل ؛ إنه كان يتكلم معهم فى دينهم الذى
اختاروه لأنفسهم ؛ فأبان لهم أن اختيارهم اختيار غير صالح
وأنهم بعيدون عن الحق بعد الظلمة من النور ؛ إذ أنهم يعبدون
حجارة لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش ولا تنطق ولا تتحرك
ولا تنفع ولا تضر : وهذه مغامرة ليس بعدها مغامرة ؛ فانها
تعرض للموت المحقق ؛ كيف لا وهى تطعن عليهم وترميهم
بالبله الذى لاحد له ؛ وهم يعتقدون فى أنفسهم الذكاء الذى لا
حد له ؛ تطورت حالة أولئك الناس الذين بلغوا فى العناد مبلغا
يدهش ؛ وزاد حنقهم عليه ﷺ فرأوا - وهم مغرورون
بقيادتهم وسيادتهم - أن يناجزوه ﷺ الحرب ليرهبوه ويسكتوه
عنهم أو يبيدوه هو وأصحابه ويستريحوا منهم ؛ وهل هاله ذلك
منهم وجعله يحجم عما هو عليه من الدعوة إلى مولاه ؛ ما كان
ذلك، بل تقدم اليهم باعا لما رآهم تقدموا اليه أصبعا، وصمدا أمامهم
صمود الجبال الرواسى أمام الزوابع تثور ثم تضمحل وتسكن
كأن لم تكن ؛ ولا زال أمامهم كذلك حتى جاء يوم كانوا فيه
جميعا عبيدا أرقاء فى يده وسيوف أصحابه مسلولة على رقابهم لو
هوت ما بقى منهم واحد، ثم تفضل ﷺ كعادته فأعتقهم
وعفا عنهم كما سبقت الاشارة اليه، لم يقف ﷺ فى شجاعته

عند هذا الحد ـ فأنه مرسل إلى الناس كافة ـ بل أخذ يكاتب الملوك والقياصر يدعوهم هم وقومهم إلى اتباعه ﷺ والايمان بأنه رسول الله وما رهب ملكا ولا قيصرا ولا تردد فى جهاد من لم يجب دعوته إلى أن وصل فى هيبته بين الامم لدرجة تذر من يتوجه اليهم لجهادهم فى انزعاج يهزمهم وبينهم وبينه ﷺ مسيرة شهر كامل ؛ هذا ما وصل اليه بعد أن كان أمام الدنيا كلها وحده ؛ ليس بجانبه واحد يثنّيه ؛ ولا زال ﷺ يجاهد أعداء دعوته ما فتر عن ذلك حتى لحق بالرفيق الأعلى ؛ وما حفظ عنه عدو ولا صديق نكصة واحدة إلى الوراء فى موقف من مواقفه طول حياته الجهادية مهما كان الموقف رهيبا ؛ ولقد صرح الممتازون بين أصحابه بالشجاعة ـ وكلهم رضى الله عنهم ممتازون ـ أنهم كانوا إذا اشتد البأس واحمرت الحدق اتقوا به ﷺ وجعلوه الحصن الذى يتحصنون به ـ وأن اشجعهم هو الذى يكون أقربهم منه ﷺ حينئذ ؛ ومن تتبع مواقفه ﷺ لا يتردد فى الحكم عليه ﷺ بأن هذا الوجود من أوله إلى أن ينتهى ما رأى ولن يرى من يدانيه ﷺ فى هذا الخلق خلق الشجاعة ؛ وإنى لأرى القارىء يتنفس تنفس المستريح المتشفى إذا رأى إنسانا تقدم إلى آخر فأخضعه بالقوة وخفف من شدته وكسر من حدته وألان من صعوبته بعد أن كان لا يطاق لجفائه وغلظته وعجرفته وإيذائه للخلق صغيرهم وكبيرهم

نعم يستريح كل منصف لهذا الذى كفى الناس شر هذا العنيد المتغطرس ويودون أن لو اكرموه بكل ما يستطيعون من أنواع الاكرام حبآله وإكبارا ؛لما أنه لم يتهيب ذلك الجافى المختال : وإذا كان هذا حب الناس لمن تقدم - فى جرأة - إلى واحد فقط من الناس فكيف يكون حبهم لمن وقف وحده أمام أهل الدنيا كلها ووصل مع أعدائه إلى ما ذكرنا سابقا ؛ أما أنا فلا ازال أقول إن صغيرا والله عليه أن يقال فيه إنه ﷺ يستحق الحب وما قيمة هذه الكلمة فيه ﷺ عدد وكيفما صلى وسلم ويصلى ويسلم عليه

## ٨ — الصدق

ومما يلزم المرشد لزوم أنفاسه لهصدقه فى القول: فان الناس إذا عرفوه بذلك وثقوا به وتلقوا كلامه بالقبول ؛ وعملوا به فى طمأنينة : أما إذا جربوا عليه الكذب فلا تسأل عما يضمرونه له من تحقير واستصغار ، نعم يسقطونه من أنفسهم وينظرون اليه نظرهم إلى أدنأ الناس وأحطهم ، ولو تكلم بينهم أعرضوا عنه وانزلوا كلامه معهم منزلة الهذيان الذى لا يسمع، بل منزلة الفواحش الشنيعة التى يجب أن يحمى الناس أبصارهم أن تنظر اليها وأسماعهم أن تصغى لها ، وما رأيت عملا يسود الوجوه وينكس الرءوس ويحقر صاحبه كهذا الكذب ،

والصدق لحضرات الانبياء الزم لانهم يحكون مايقولون عن رب العالمين ويتخذالناس ما يقولونه دينا يتدينون به فلو كذبوا - وحاشاهم - لكان كذبهم على الله السميع العليم وهو جرأة لاحد لها وعظيمة ليس فوقها عظيمة ، ثم مع هذا كان الناس يعبدون الله تعالى بالكذب ، ولذلك يجب أن ينزه الأنبياء عن هذه الرذيلة كل كل رذيله لافرق بين واحدمنهم وواحد : وسيد الانبياء وصفوتهم حضرة نبينا ﷺ نشأ بين أولئك العرب عرفوه صغيرا وشابا وكهلا وما عرفوا عنه كلمة واحدة تخالف الواقع ، لذلك كانوا لا يرتابون أى ريب فى أى خبر يخبر به عليه الصلاة والسلام ، ذلك والله كان شأنهم معه صلى الله عليه وسلم وفى أنفسهم من البغض له مافيها ، ولقد روى البخارى أن هرقل ملك الروم سأل سيدنا أبا سفيان رضى الله عنه قبل أن يسلم سؤالا من أسئلته المعروفة لفظه (فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال (أى قبل أن يدعى النبوة ) فكان الجواب ( لا ) ، وكان تعليق هرقل على هذا السؤال والجواب أن قال لسيدنا أبى سفيان ( وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت ان لا فقد أعرف انه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ) ، هذا اعتراف سيدنا أبى سفيان ، ومعروف ما كان عليه قبل الاسلام من شدة عداوته

له عليه الصلاة والسلام ، ولينظر القارىء كيف استنبط هرقل من جواب سيدنا أبى سفيان انه ليس من المعقول أن يتورع صلى الله عليه وسلم عن الكذب على الناس - وهم من الجهل بالدرجة التى يشتبه معها الصدق بالكذب والكذب بالصدق اشتباها قد لا يخرجون منه إلى تمييز أحدهما من الآخر - ومن العجز بالدرجة التى لا يستطيعون أن يعملوا معها للكاذب شيئاً من الضرر - ثم لا يتورع عن الكذب على الله عالم الغيب والشهادة الذى بيده الضر والنفع فى الدنيا والآخرة ، ما ابعد نظر هذا الرجل ( هرقل ) وما أدقه فى تحقيقه ، وروى البخارى أيضا أن سيدنا سعد بن معاذ قال لأمية بن خلف من قصة ( فانى سمعت محمدا ﷺ يزعم ( أى يقول ) أنه قاتلك قال إياى قال نعم قال والله ما يكذب محمد إذا حدث فرجع إلى امرأته فقال أما تعلمين ماقال لى أخى اليثربى قالت وما قال قال زعم أنه سمع محمدا يزعم أنه قاتلى قالت فوالله ما يكذب محمد ) هذا لفظ البخارى ومنه تعلم ما ينطوى عليه اعداؤه من عقيدة أنه صادق صدقا لا يشك فيه، حتى أن الرجل ليقسم بالله أنه لا يكذب إذا حدث وتحلف امرأته بالله على ذلك، فيتفق رجالهم ونساؤهم على اعتقاد أنه لا يكذب ﷺ، وقد قتله ﷺ - كما أخبر - بيد أصحابه فى

غزوة بدر، وروى عبد الرزاق وابن سعد والبيهقى أن أبى بن خلف لما طعنه النبى ﷺ يوم أحد وهون عليه أصحابه مابه منها قال يرد عليهم ( لو كان مابى بجميع الناس لقتلهم أليس قد قال أقتلك والله لو بصق على لقتلنى ) فهذا خبيث من أخبث الكفار كان فى حرص تام على أن يقتله ﷺ ولما طعنه تذكر وعيده ﷺ له بأنه يقتله ردا عليه فى وعيده هو له ﷺ بالقتل ، فالرجل يرد على قومه لما هونوا عليه الطعنة وأفهموه أنها لا تقتله - بأنها لابد أن تقتله لوجهين ذكرهما، أحدهما أن ألمها لذى يشعر به عظيم جدا لا يمكن أن لا يموت به بل هو يستصغر عليها أن تميته وحده ويقرر أن المهـــا لو كان بجميع الناس لقتلهم وهو يعلم ذلك وهم لا يعلمون ، والثانى أنه ﷺ أخبر أنه يقتله وهو لا يكذب ابدا ، ويبالغ الرجل فى صدقه ﷺ إلى حد أن أخبر أن خبره ﷺ لابد أن يتحقق ولو لم يعمل ﷺ به شيئا قاتلا ولا مؤلما أى ألم وهو بصقه عليه الصلاة والسلام عليه ، ولعل القارىء يرى من هـــذا صورة من صدقه عليه الصلاة والسلام فى نفوسهم إليها تنتهى الفخامة والعظمة ، وإذا كان هذا قدره فى صدقه ﷺ عند أعدائه فهو عند أحبابه بالضرورة أفخم وأعظم ، ذلك ليس بمحتاج إلى بيان ؛ وان شئت أن أزيدك على هذا حتى تقول حسبى حسبى فاسمع ربنا عالم الغيب والشهادة الذى لا تخفى

عليه خافيـة حيث يقول عنه ﷺ فى هـذا المعنى ( وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحى يوحى ) ، فهـذا وحى إلهى قطعى الدلالة قطعى الثبوت ينزهه ﷺ عن أن يكون له هوى وميل يطيعـه وعنه يتكلم : كالمعروف فى الناس أن أحدهم إذا أحب شيئا أكثر من ذكره ، ولا يذكره ويتكلم عنه إلا لما له فى نفسه من هوى وحب : وبعد أن نزهه ربه هـذا التنزيه قصر كل ما ينطق به من كلام على الوحى الالهى : وهذا الوحى لا يكذب أبدا لأنه عن رب العالمين المحيط علما بكل شىء والذى لا يدعوه داع لأن يخبر خبرا يخـالف الواقع ؛ إذن تـكون النتيجـة أن الكذب محال عليه ﷺ وغير متصور ان يصدر منه أبدا ، وانظر أنت كيف يكون حبك لامرىء تعهد فيه الصدق العادى إنه والله حب عظيم يجعلك تضع مالك بين يديه يتصرف فيـه كما يشاء لأنك لا تشك فى أنه يرده إليك قطعـا كما يقول وهو صادق — ويجعلك تراه جميلا جمالا لا يقرب منه جمال فان الصدق هكذا لا تماثله حلية ولا حلة — ويجعلك ترتقب نطقه فلا يكاد يقول كلمة إلا وتبتدرها أذنك وعنها يتلقفها قلبك بكل تلهف فيضعها منه فى السويداء ؛ هـــذا حالك وهو حالى وحال كل الناس العقلاء مع ذوى الصدق العادى فقل لى إذن كيف يكون حالك فى حبك لذى الصدق الذى شرحناه

وهنا دقيقة أحب أن يلاحظها القـارىء وهى أن المرء على

قدر شرفه بين العالم يكون صدقه وبعده عن الكذب ، وكلما كان الرجل أشرف يكون أبعد عن تلك الرذيلة ، يحافظ بذلك على شرفه ان يخدش ، ولقد صرح سيدنا أبو سفيان رضى الله عنه فى حديثه السابق مع هرقل أنه لم يمنعه عن الكذب فى شأنه ﷺ أمام ذلك الملك الا محافظته على قدره بين الخلق وخوفه أن يحفظ عنه أنه صدر عنه كذب ، ومن هذا تفهم ان المرء إذا كان له مظهر عظمة بين الناس لا تسمح نفسه أن يهدم مجده ذلك بيده ولو كان من أهل الكفر ، وأولى برعاية هذا المعنى رجل مسلم له هذا الشرف ، فان اسلامه يدعوه إلى عدم الكذب كشرفه ، بل الاسلام داع أقوى ، لان الرجل المسلم يعلم من دينه أنه لا ينطق بكلمة إلا وهى تسجل عليه فى كتاب عمله وبها يؤخذ وعليها يجازى بما يلائمها من خير أو غيره — ويعلم كذلك ان مولاه يسمعه وهو يتكلم فيغضب ان كان ما يتكلم به كذبا ويرضى إن كان صدقا — ويعلم أن الكذب من بين المعاصى من الموبقات العظيمة ، وحسبه عظما بينها أن ربنا عده فى كتابه من المعاصى التى لا تليق إلا بالكفار ، ونزه المؤمنين به تعالى وبكتبه ورسله أن يكون ذلك الكذب من أخلاقهم ، ولذلك يقول هو تعالى فى ذلك الكتاب الكريم ( إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ) ، ومن هذا المقام تفهم أن الكاذب يباشر عملا من أعمال

الكافرين ويترك العمل اللائق بالمؤمنين المناسب لإيمانهم وخشيتهم لمولاهم سبحانه، وهذا نقوله فى أى كذب، فليسمعه أناس يسعون فى الأرض فساداً بما ينقلونه عن الأبرياء لذوى المراكز الحكومية الذين بيدهم تصريف شئون الأمم، أولئك الناس يعلمون حق العلم أن فى نقلهم الدواهى تنزل بالناس، ومع ذلك لا يتهيبون الاختلاق على عباد الله؛ ولعله لا يمر يوم إلا ولهم فيه بلايا وعظائم يرمون بها إخوانهم، وياليتك تراهم عند ما يرون أخاهم وقد كبل بالحديد وأودع فى ظلمات السجون وترك حرمه وأولاده يتكففون الناس — وأهله وأحبابه فى حسرات عليه وآلام — وتركه هو والهموم تعمل فيه أعمالها ولا مجير ولا مغيث؛ وقليل ثم قليل ممن احترفوا حرفة النقل — من يعاف الكذب ويتحرى الصدق الذى لا نعده من الفضائل فى هذا الباب؛ وإنما نعده من الرذائل، ولعل القارىء يعجب ويقول كيف يكون صدقا ويكون من الرذائل؛ ليهون حضرته على نفسه ويعلم أن المغتاب لا يكون مغتابا إلا إذا كان صادقا، ومع ذلك معروف ماهى الغيبة قبحا فى دين الاسلام؛ وقل ذلك فى النميمة إيضا إذا كانت صدقا والنميمة قدرها فى باب ما يغضب الله قدر معروف محفوظ؛ وقد يستحق الصادق على صدقه ثمانين جلدة قد تعرضه للموت؛ وذلك إذا رمى مسلما أو مسلمة بالزنا، فان ربنا عزوجل يقوله

فى مثله ( هلا جاءوا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ) ، ففى حكم ربنا يكذب من يرمى المسلم بالزنا ولو كانوا ثلاثة من العدول بل ولو كانوا أربعة فيهم واحد فاسق : ذلك حكمهم وإن كانوا فى بعض الصور صادقين : وإنما كان ذلك حكم الله فى هذا الباب صونا لأعراض المؤمنين وبعدا بهم عن هذه الداهية التى تهدم البيوت الرفيعة، وتسود الوجوه الوجيهة ، وتنكس الرءوس العظيمة، وتلزم الأسر المسلمة عارا يطول أجله ويطول ، يصحبه ذل أى ذل : وآلام أى آلام ، وكثيرا ما تفضى تلك الداهية إلى قتل الأبرياء من الرجال والنساء ، ولعل الأرض تضم بين جوانحها من أولئك الأبرياء من يعجز الحساب عن ضبطهم ، هذا مع قيام ذلك الحكم الالهى ، فكيف يكون الحال لو كان التفوه بتلك البلية من المباحات ، ان الامر إذن كان يكون فوضى لا يستطيع العقل أن يقدر مدى ضررها ، فكان كل امرىء فى نفسه شىء من أى واحد أو واحدة يرميه أو يرميها بتلك الفاحشة وإذن تمتد يد القتل إلى الشريكين ، وليس ببعيد أن تتلو هذه اليدَ يدُ الانتقام ممن بلّغ أو باشر القتل من الاهلين الغيورين

وقد يقابل الانتقام بمثله ، وهو كثير وكثير ، وليس وراء ذلك الا خراب الوجود ، فليعلم هذا لتفهم الحكمة فى تشديد الأمر

فى إثبات الزنا ، وإذن فليعذرنى القارىء إذا سميت الصدق فى النميمة بل فى السعاية رذيلة ، وليعلم ان الانسان الذى نقصده بهذا الكلام قد يقول الكلمة فتكون فى آن واحد غيبة ونميمة وبهتانا وسعاية وكذبا وفحشا ، أما أنها تكون غيبة فلأن الذى قيلت فيه يكرهها ولا يحب أن تقال فيه مع كونها صدقا ، فاذا كانت ليست كذلك فهى كذب وغيبة وبهتان ، وأما أنها تكون نميمة فلأنها تكشف أمرا يكره إفشاؤه سواء كان الذى يكرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو أحد غيرهما ؛ وأما أنها تكون سعاية فلأنها تنقل إلى من يستطيع إنزال الضرر فى ظاهر الأمر ، وأما أنها تكون فحشا فلأنها تكون مما لا ينبغى الجهر به صريحا ، وقد يكون فى الكلمة غير ما نقول من المعاصى ، ولنكتف بما ذكرنا ، ولسنا نطلق الكلام فى عد نقل الكلام رذيلة فقد يكون من الواجبات كتنبيه من ائتمر على قتله أو سرقة ماله أو هتك عرضه أو هدم بيته أو حرق متاعه وما إلى ذلك من المضار العظيمة ، مثل هذه الأحوال ينبغى تبليغها مع غاية الاحتراس ليحتاط فى التأهب لدفعها ، ولنعد قائلين إذا كان المسلم يعلم فى الكذب ما قلنا دعاه علمه هذا إلى تركه من غير شك بعداً بنفسه عما يعقبه من ضرر دنيوى وأخروى ، فيضاف احتراسه منه من هذا الوجه — إلى احتراسه من جهة أنه يخدش شرفه ويقلل من قيمته أو هو يمحوها محواً : وكلما

كان المسلم أرفع قدرا فى دينه كلما كان أبعد عن هـذا الكذب يحافظ على شرفه بين الخلق وعند الخالق سبحانه وتعالى ؛ وقد يكون الموت أهون عند المسلم من النطق بكلمة الكذب ، لأنه يعلم أنها تهوى به من مركزه عند ربه ، وهو حريص الحرص كله على أن يرقى عنده ثم يرقى : وأين حرص أرباب المراكز الدنيوية عليها - من حرص المؤمنين على مراكزهم عند ربهم ، وأين جزع أرباب المناصب إذا عزلوا من مناصبهم — من آلام المؤمنين الأفاضل إذا أحسوا أن درجاتهم نقصت عند مولاهم ومالك نواصيهم ، وأين احتراس أصحاب تلك الولايات وهاتيك الكراسى وشغلهم ليلا ونهارا على الاحتفاظ بها — من احتراس عباد الله على درجاتهم التى رقاهم اليها ربهم وتفانيهم فى كل حركاتهم وسكناتهم فى البعد عن كل ما لعله يسبب زحزحتهم عن الحظوة عند مالك نواصيهم بتلك المقامات الكريمة وهاتيك المراكز الفخمة حقا ؛ وإذا كانت تلك المراكز الصغيرة التى لخاصة الامم التابعين لانبيائهم هذا عملها فى بعد أربابها عن المعاصى كالكذب الذى نتكلم فيه - فليقل لى القارىء كيف تفعل مراكز الانبياء فيهم ﷺ لتبعدهم عما ينزلهم - وحاشاهم ثم حاشاهم - عما هم عليه من شرف لا يعلم قدره غير مانحه عز وجل ، انها بلا أى تردد تفعل العصمة التى تستحيل معها المعصية استحالة ، هذا نقوله فى أى معصية فضلا

عن الكذب الذى يعده دين الله من أفحش الفواحش وأكبر الكبائر ، وإذا كان ذلك يقال فى حضرات سادتنا الانبياء لا فرق بين نبى منهم ونبى - فكيف نقول فى سيدهم وصفوتهم وخاتمهم عليه الصلاة والسلام ، وقدره بينهم وبين جميع العالم الفاضل علويه وسفليه القدر الممتاز الذى يعرفون جميعا أنه القدر الذى لا يساميه قدر واحد منهم منفردا ولا أقدارهم مجتمعين ، كيف يكون حرص هذا على الفضيلة يعملها وكيف يكون حرصه على البعد عن الرذيلة ، أما أنا فأقول إن ربنا وحده هو الذى يعلم قدر ذلك منه ﷺ ، ولذلك أنا لا أزال أكرر أن الدعوة إلى حبه ﷺ دعوة صغيرة ؛ ولو قال لى حضرة القارىء إذن ما الذى تراه ينبغى معه ﷺ لكان جوابى فى صراحة أنا عاجز عن أن أعبر عما فى نفسى مما ينبغى له ﷺ ؛ ولعل الأقرب إلى الصواب - أو هو الصواب بعينه — أن الخلق عاجزون كل العجز عن أن يقوموا بكل ما ينبغى له عليه الصلاة والسلام فى فضله وكماله ؛ وجهد المقل أن يحبه المرء حبا فوق حبه لكل عزيز عليه حتى نفسه لأنه ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؛ ﷺ عدد وكيفما صلى وسلم ويصلى ويسلم عليه

## ٩ — قوة البيان

ومن ضروريات المرشد الذى تلزمه لزوم المال للجواد ؛

قوة البيان ؛ ذلك أن وظيفته كلامية والكلام إنما يكون باللسان فاذا كان له لسان يبين للمسترشدين ما أراد أن يوصله إليهم من رشده وهداه أحبوه لاستفادتهم منه ما يستنيرون به فى دينهم ودنياهم بلا تعب ولا مشقة ؛ وكلما كان أفصح لسانا وأبين قصدا كلما كان أحب اليهم ؛ وإنى أظن أن العيون لا تقع على أحد أحب إليها من مرشد ثابت الجنان طلق اللسان واضح البرهان ولعل كلام هذا المرشد عند كثير من العقلاء أنفس وأثمن وأحب من الجواهر الغوال ، ولو راجعت آذان الفضلاء هل مر عليها صوت يدانى فى حلاوته صوت المرشد المبين لكان جوابها النفى العام أن يكون عندها فى حلاوة هذا الصوت حلاوة صوت ؛ وما أصوات القيان، والمزاهر والعيدان ، وما اليها من الأصوات الحسان . بالنسبة لهذا الصوت : فان تلك أصوات لهو ولعب ؛ وهذا صوت إيقاظ وتنبيه ؛ وأين مقدمات النيران من مقدمات الجنان .

أما إذا كان المرشد عى اللسان غامض البيان عاطل البرهان فانى لا أشبهه فى نظر السامعين إلا بأحد الاغنياء الذين عندهم من الذهب الآلاف والملايين ، وفيه من السخاء منتهاه ومن الرحمة ما يطالبه دائما بقتل فقرهم وتبديله بغنى واسع ولكنه عند ما يمد يده للمال لينفذ ما يقتضيه سخاؤه ورحمته يحال بينه وبين ذلك بحاجز قاهر يجعله يقبض يده

ولديه من الأسى مالديه ، أو هو أشبه برجل لديه من الماء العذب مقادير عظيمة وحوله من الناس كثير تكاد تحترق أكبادهم من شدة حرارة الظمأ والجميع يرجونه بلسان واحد أن يسقيهم ليزيل ظمأهم ويحيي مهجهم ؛ فاذا مد يده ليلبي طلبهم قصرت عن أن تنال مالديه من الماء فيسكت في غم ، هكذا ينبغي أن تتصور المرشد ضعيف البيان ، فانه يريد أن يقتل من العامة ظمأ الجهل بزلال علمه أو ينفق عليهم من درر علمه مايزيل فقرهم العلمي فتقف في وجهه تأتأته وفأفأته وتلجلجه فيسكت مضطرا في أسف ، أو يتمادى على حرونه ، يتقدم للكلام فيتأخر عن ذلك لسانه ، كالحصان الشموس تدفعه للامام فيتأخر ، ومرشد هذا حاله لابد أن تنصرف عنه الناس ، أولا ينصرفون ولكن يعرضون عن سماعه ، أو يسمعون وهم يضحكون منه ، وهل تتصور أن هذا ينفع أحدا ، انك لا بد أن تنفي ثم تنفي ، لهذا يجب أن تعلم ان ربنا العليم الحكيم لم يرسل رسولا قط شأنه ما ذكرنا ، ولما أرسل تعالى سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ورأى في لسانه شيئا من ضعف البيان ابتهل إلى ربه أن يقويه ويزيل ذلك الضعف إذ قال كما يحكى عنه ربه من دعوات ( واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ) فاستجاب له ربه هذه الدعوة كتلك الدعوات فقال عز وجل ( قد أوتيت سؤلك ياموسى ) فكل الأنبياء فصحاء فصاحة لايساوون فيها ، وعقلاء

عقلا لا يدانون فيه أبدا، فانه لو أرسل رسول وكان قومه أعقل وأفصح منه لغلبوه فى مناظراتهم وألزموه الحجة، وذلك مصيبة هى أكبر المصائب لأنها انتصار للباطل على الحق من ناحية ـ وتعريض للأنبياء أن تحتقرهم أممهم ويسخروا منهم من ناحية أخرى، فان الغلبة فى المناظرات قهر عظيم وصغار على المغلوب أليم، خصوصا عند العامة الذين يغترون بكل شىء. ولقد كان لحضرة سيدنا ومولانا ونبينا محمد ﷺ الحظ الأوفر من هذه الفصاحة بين أولئك العرب الذين لم يخلق ربنا من أول الدنيا إلى آخرها أفصح منهم لسانا ولا أحلى بيانا، كان هؤلاء الناس يتعجبون من فصاحته ﷺ ولا يرون له نظيرا فيها بينهم حتى قال له مرة سيدنا أبو بكر رضى الله عنه (لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك) فكان جوابه ﷺ لبيان السبب فى هذا أن قال (أدبنى ربى ونشأت فى بنى سعد بن بكر) رواه ابن عساكر، يتضمن كلام سيدنا أبى بكر أنه صلى الله عليه وسلم صفوة الصفوة من العرب، والعرب صفوة الامم فيكون هو عليه الصلاة والسلام فى فصاحته صفوة صفوة الصفوة من الامم، وتضمن كلامه ﷺ أن ذلك ليس بغريب فيه لسببين، أحدهما أنه نشأ ﷺ فى بنى سعد وهو شهادة منه ﷺ بتميز تلك القبيلة فى الفصاحة بين العرب، والسبب الثانى الذى قدمه صلى الله عليه وسلم فى الذكر ـ وهو

السبب الأكبر — أن ربه أدبه ، وإنى أرجو من القارىء أن لا يمر بهذا السبب دون تفكير فيه وتقدير له ، فان المرء عندنا يكون من الاعاجيب فى أدبه إذا عنى بتأديبه رجل فاضل ، فاذا نشأ فى بيت ملك ضربوا بأدبه المثل وقالوا (تربية ملوك) فما يقوله القارىء فى رجل رباه ملك الملوك ورب الارباب ثم يصرح هو بذلك فيقول (أدبنى ربى) ان الذى يقال فى هذا الرجل الكامل ﷺ إن أكبر وأجل وأفصح وأبلغ أمة خلقها الله تتسابق لتلك التربية وذلك التأديب — فى ميادين مدحه أئمتها كعلمائها وأدبائها وشعرائها وذوى الرأى فيها ؛ واعتقادهم جميعا — وهم كذلك — أنهم ما عملوا شيئا مهما غلوا وأطروا ، وكان المتقدمون من هذه الامة يتهيبون النزول فى هذا الميدان ، يرون أنفسهم ليسوا بأكفاء لنزوله ، يقولون ماذا نقول فيمن يمدحه ربه الذى خلقه مدحا لا يدرك مداه يتلى على مر الدهور بألسنة لا يعلم غيره سبحانه عددها ، ومن هذا التأديب الالهى أنه ﷺ أوتى جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصارا كما أخبر هو ﷺ عن نفسه فيما رواه أبو يعلى والبيهقى والدارقطنى ، ومعنى هذا أنه يتكلم بالكلمات القليلة العدد وفيها من المعانى الشىء الكثير ، ولقد التفت إلى هذا المعنى من قال ان الدين كله مجموع فى أحاديث ثلاثة أو أربعة من كلامه عليه الصلاة والسلام ، ولما أنه ﷺ منح هذه المنحة العظمى استطاع أن يأتى على حوادث

الدنيا الجسام التى تكون من عهده ﷺ إلى يوم القيامة فى خطبة واحدة ، كما رؤينا ذلك قبلا ، ولم تستغرق إلا يوما واحدا تلك الخطبة ، ولولا أنه ﷺ أعطى تلك الجوامع ما أمكنه أن يفعل ذلك أبدا ، وما نحس به من أنفسنا أصدق شاهد على ذلك ، وهذه الخطبة تبين لك مبلغ ما أوتى ﷺ من قوة بيان وقوة إحاطة ، فانه خطبها وما قالوا إنه تلعثم ولا وقف ولا فكر ، وإنما كان يغترف من بحر الغيب الذى كان يتدفق على لسانه ﷺ تدفقا ، وإذا أردت أن تزداد من العلم بقوة بيانه ﷺ فبين يديك سنته ﷺ فارجع اليها واترك جوهرى فكرك يتناول بيد تقديره جواهر ألفاظها جوهرة جوهرة ثم استلهم رأيه فى ذلك إن كان من ذوى الرأى ، إنك ان فعلت ذلك رجع اليك ذهنك وهو فى دهشة مما رأى ، ولا يسعه إلا أن يقرر بلهجة المنصف المقتنع أنه عاجز كل العجز عن تقدير ما تناول من تلك الجواهر ، فانه يرى صيارف هذه الأمة من عصره ﷺ لليوم يقلبون فى هاتيك الجواهر وكلهم جد ونشاط فى محاولة اكتناهها وتعرّف مقاديرها على ماهى عليه ، وكانت النتيجة لتلك المحاولة أن كلا منهم فهم من قدرها على قدره هو موقنا أن وراء ما فهم ما وراءه ، ثم هى الشطر الثانى من الوحى الالهى ، وهى البيان الشافى للكتاب الكريم ، وهى الدرجة الثانية فى الفصاحة والبلاغة من درجة ذلك الكتاب الحكيم ، فاذا كنت من اهل الفهم لدرجة

الكتاب كنت أهلا لأن تفهم درجة كلامه ﷺ وقوة بيانه ، وإنى بعد هذا البيان أسأل القارىء الفاضل هل من المناسب عند ذوقك السامى أن أدعوك لاعتقاد أنه ﷺ يستحق أن يحب وأنت تصرح كل يوم أن كثيرا ممن تعرفهم من نساء ورجال — الله أعلم بحالهم — يستحقون أن يحبوا ، أما أنا فوالله لا أرى الا ماذكرت قبلا من جهد المقل معه عليه الصلاة والسلام

## ١٠ — التواضع

ومما يتوقف عليه الارشاد توقف اللطف على لين الكلام وحلاوته — خلق التواضع أى خفض الجناح للمؤمنين ومعاملتهم بالرفق والهدوء ، هذا يحتاجه المرشد كل الحاجة ، لأن فى طباع الناس النفور من العلو والكبرياء ومقت المتكبرين والنظر اليهم بعين البغضاء ، وهذا لا يتفق معه الاقبال على المرشد والاصغاء اليه وقبول مايقول ، وإنى أؤكد للقارى أن الناس — بحسب طباعهم — يفضلون الحياة مع الجهل على أن يجلسوا بين يدى معلم متكبر ، ذلك لان النفوس فيها عظمة ، عليها طبعت وإن لم تشعر بها ، فتراها لهذا تحب من يلين لها ويلاطفها ويعاملها معاملة الرفيق الواد ، فاذا أحست من أى مخلوق علوا وتعاظما عليها ولو من ملك عظيم — اشمأزت منه ونفرت وشعرت بضيق فى صدورها لا تطيق معه أن تتحمل ذلك المتعالى عليها ، ولو رأيتها

يومـا تتحمله فاعلم أنها لأمر ما تتحمله، وما رأيت فى حياتى عباد الله يستثقلون أحدا كاستثقالهم للمتكبر، حتى إنهم ليرونه ماشيا أو جالسـا فيخيل لك أنه يمشى أو يجلس على أكبادهم، وتراهم يتعمدون معاملته بضد ما ينطوى عليه، يفهمونه بذلك أنهم يصغرون من شأنه ويحطون من قدره حتى يوقن أنه عندهم حقير لا عظيم ومنحط لا رفيع ، وانى لأظن أن الدنيا بأسرها فيها متكبر مستريح مع الناس يعاملونه بما يحبه فى أى فرع من فروع المعاملات ، هذه سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولا تظن أن هذا المتكبر يستريح إذا مات — لا تظن هذا وتأكد أن ألمه فى أخراه يزيد عن ألمه فى أولاه ملايين المرات ، كيف لا والمتكبرون يكونون يوم القيامة فى مقادير الذر يطأهم الناس بأقدامهم كما فى الحديث الشريف ؛ والله أعلم بما تعمله فيهم، النار بعد ذلك ، وهذا من ربنا إفهام لهم أن ما كان بنفوسهم وهم بالدنيا كان غير صحيح ، فان أحدهم كان يرى نفسه عظيما وإذ به يرى نفسه فى مقدار الذرة ؛ وكان يظن أن قدمه فوق الرءوس وإذ به يرى نفسه تحت الأقدام

ولعل القارىء فهم من هذا حال أهل الكبرياء وما آلهم، لهذا قلنا إن المرشد — مهما كان عاديا — فى حاجة إلى التواضع شديدة ، وإذن يجب أن تعلم أن سادة المرشدين حضرات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم مطبوعون على هـــذا الخلق طبعاً

لايحسنون أن يظهروا بغيره أبداً ، فان ربنا الخالق المرسل لهم حكيم، بعيد عليه بل مستحيل أن يرسلهم بحالة تنفر الناس منهم وتبغضهم لهم بغضاً لو أرادوا معه أن يقوموا بمهمتهم لعجزوا عنها كل العجز : وحضرة مولانا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتمهم وسيدهم ـ كان فى هذا الخلق سيد أهل التواضع كما هو السيد فى كل خلق

ففى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم ( كان يحلب شاته ويرقع ثوبه ويخصف نعله ويخدم نفسه ويقم البيت ويعقـــل البعير ويعلف ناضحه ويأكل مع الخادم ويعجن معها ويحمل بضاعته من السوق، ) أى درجة هذه فى درجات التواضع ، إنها والله درجة رحمة الله تعالى للعالمين حبيب الله وصفوته من جميع العباد هو هكذا، ويباشر بيده الشريفة ما يباشر الخادم، يحلب الشاة ويعقل البعير ويعلف الناضح وهو الجمل الذى يحمل عليه الماء للشرب ويحمل متاعه من السوق ، وأرقى من هذا فى باب التواضع أنه كان يرقع ثوبه ويخصف نعله ، وهو غير محتاج لتعليق لفهم هذا الخلق منه بدرجة لا تسامى ـ مع مافى ذلك من إفادة أنه كان لا يترك الثوب إذا تمزق وأبلته الايام؛ بل كان يضع فى مواضع التمزيق قطعا من القماش متينة ويصلها بالثوب بالخياطة ويلبسه مرقعا ،والعيون تراه وهو لابسه مرقعا ، والموت أهون من هذا عند المتكبرين ـ ولا يترك النعل بمجرد تخرقه بل يصلح

مافسد منه ويلبسه وهو هكذا ، وأسمى من هذا كله - فى هـذا الباب - أنه كان يكنس البيت ويعجن العجين - لا وحده منفردا كيلا يرى - بل يعجن مع الجارية خادم البيت التى لا تصبر عن إذاعة مثل هذا ، إنى أرجو أن يطيل القارىء النظر فى هـــذا ثم يطيله ليفهم جيد أين سيد العالمين ورحمة الله للخلق أجمعين وأين الكنس والعجن اللذان هما من أعمال النساء بل الخدم من النساء ، علم ﷺ أن ( من تواضع لله رفعه الله ) كما رواه أبو نعيم فى الحلية عنه ﷺ ، فتواضع لله ثم تواضع للحد الذى سمعته ، فرفعه الله ثم رفعه للحد الذى سبق ويأتى بيانه - وعلم ﷺ أنه الأسوة الحسنة لكل أمته ، وفى هـذه الأمة بل السواد الاعظم منها الفقراء ، ففعل ما تقدم ليفعله الفقراء مستريحين فاهمين أنهم يفعلون ما فعله سيد الخلق ﷺ - وعلم ﷺ أن سيكون فى الأمة أغنياء وعظماء فافهمهم بعمله هـذا أن الغنى والعظمة يجب أن يكون معهما تواضع يسهل معه فعل مثل أفعاله هـذه ﷺ - وعلم عليه الصلاة والسلام أنه بين قوم جاهلية كلهم أنفة وعجرفه وغطرسة ، فأراد بفعله ذلك أن يقتلع من قلوبهم تلك الاخلاق من جذورها ويمرنهم على لطف المؤمنين وسهولتهم وحلاوتهم - مع مافى ذلك من بيان أن العظيم لا يؤثر على شرفه ولا يصغر من شأنه مثل هاتيك الأفعال ، بل تزيده شرفا على شرفه ورفعة على رفعته ،

والذى يخاف أن يسقط و تذهب حرمته من مثل ماذكرناهو الساقط فى نفسه مز عزع الحرمة فى الصدور والعيون ، مثل هـذا هو الذى يحرص الحرص كله على أن يبعد عن مثل تلك الافعـال لعله يحافظ على تلك القيمة المزعزعة ، ولهذه المناسبة أقول إنى كثير التفكر فيما عليـه نفوس الناس وأستطيع أن أقول — ـ كنتيجة لكثرة هذا التفكر ـ إنى ما رأيت رجلا فاضلا يستحق أن يقال عنه إنه من العظماء حقا إلا ورأيته سهلا هينا لينـا قريبا من الناس فى كل حال لا يشك من رآه فى أنه لا يعرف لنفسه أدنى قيمة ، وما رأيت رجلا منقبضا بعيدا عن النـاس متعاليا عليهم فى زهو وعجرفة الاوكان بعيدا فى الواقع عن العظمة والفضل بمقدار مابه من تلك العجرفة والغطرسة ، وهذا هووالله مايفهمه قوله ﷺ ( ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ جعظرى مستكبر ) رواه الشيخان والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد ، وكأن المنحط لمارأى نفسه خاليا عن أسباب الرفعة والعظمة أراد أن يرفعها هو و يعظمها ليغتر الناس بتكلفه ذلك و يعظموه ، وهو غالط غلطا بينا ، كان لذلك التواضع الوحيد الفريد تواضعه ﷺ أثره فى معـاملته ﷺ لأصحابه ولسواهم ، وكان لهذه المعاملة أثرها فى نفوسهم رضى الله عنهم وفى نفوس غيرهم ، فانه لم يحفظ عنه ﷺ أنه واجه

أحدا فى حياته كلها بشىء يكرهه إنما هى الحفاوة والاجلال والبشاشة والاكرام اللائق بأكرم العالمين ﷺ، ولذلك كان يفد اليه الوافد وهو ﷺ ابغض الناس اليه فينصرف من عنده وهو احب الناس اليه ؛ وكان يزوره العربى وهو من أجلاف العرب تحوطه ظلمة الكفر من كل نواحيه فيرجع حكيما ينطق بالحكمة وقد محا نور الايمان ظلمة الكفر منه ، ومن عجائبه ﷺ التى يستطيع الدهر أن يقسم أنه ما رآها فى غيره عليه الصلاة والسلام أن أصحابه رضى الله عنهم كان يفهم كل واحد منهم - من منتهى لطفه ﷺ فى معاملته له - أنه أحب أصحابه إليه ، وهل ينتظر الانسان أو يتصور عقله ألطف وأرفق من أنه ﷺ كان يتحرى حتى فى أسمائهم أن يناديهم بأحبها اليهم ، وأظنك توافقنى فى أن المتكبرين لا يعجبهم هذا وإنما يعجبهم أن ينادوا بأبغض الاسماء وأن يعاملوا أقبح المعاملة وأغلظها وأن يسبوا ويلعنوا بل وان يضربوا ويقتلوا لأنهم يفهمون أنهم فى مستوى غير مستوى الناس ، ومن جهلهم وغباوتهم أنهم ينطوون على أن الناس يعتقدون فى أنفسهم أنهم دون حضراتهم، وحينئذ لايجرؤ أحد أن يقابل غلظتهم وسبهم ولعنهم وضربهم وقتلهم بمثله، لأن المقابلة تقتضى مكافأة فى المقام ولا مكافأة فى نظرهم ، ولذلك يرغى أحدهم ويزبد إذا رأى أحـــدا عامله بما يناسب معاملته لأنه فوجىء بما لم يكن له فى حسبان ؛ قاتل الله

الكبر وقاتل أهله ، وكان ﷺ إذا استوقفه أحد من أصحابه ـ وقد تكون امرأة ـ وقف معه كما يشاء ولا ينصرف أبدا إلا إذا كان الذى استوقفه هو الذى ينصرف ، وكان إذا تناول يده متناول لا ينزعها من يده مادام ممسكها فاذا أرسلها ضمها اليه وقتئذ ، وكان ﷺ إذا أحب أحد أن يتكلم معه أصغى اليه ولا يخل بهذا الأصغاء مادام هذا المتكلم يتكلم فاذا سكت استباح لنفسه عندئذ أن يشغل أذنه بسواه ، ﷺ ما أصبره على ملاطفة الناس والرفق بهم فان هذا الذى يفعله إنما يقوى عليه المملوك الذى يشعر أنه فى رق مولاه . أما من يملك نفسه ويفهم أنه حر التصرف ـ فضلا عن سيد الخلق ـ فبعيد كل البعد أن يصبر هذا الصبر ؛ ولكن لا عجب فالقادر الحكيم طبع صفوة خلقه على هذا ، لأنه من ألزم ما يلزمه لمركزه ، وكان ﷺ يماشى فقراء أصحابه وضعفاءهم ويزورهم فى بيوتهم ويعودهم فى مرضهم ويشيع جنائزهم ويحبهم الحب الذى يحمله على أن يدعو مولاه أن يحييه وأن يميته وأن يحشره فى زمرتهم ، إنى أحب أن يفكر فى هذا أناس يرون مخالطة المساكين من العورات التى يستحيا منها ويجب البعد عنها ، وكان ﷺ إذا دعى من مسكين ـ ولو إلى خبز شعير ـ أجاب دعوته ولا يرى أبدا أن من دعاه ليس من طبقته وأن ماقدمه له من كرامة لا يليق بمقامه كما تتخيله أفكار جاهلة فاجرة ؛ هو ﷺ يعلم أن

روح الدعوة إقامة البرهان على المحبة الكثيرة ؛ وليس من مكارم الاخلاق التى بعث لأن يتممها أن يرفض الدعوة ؛ لأن ذلك يكون بمثابة تكذيب للمحب المخلص ؛ وهو ما تنصدع له القلوب، ولو لم يجب ﷺ إلا دعوة مماثل قدم ما يليق بالمقام ما أجاب دعوة ؛ لأنه ليس فى الناس مكافىء وليس عند أحد ما يليق بهذا المقام الذى ليس فى العالمَين الدنيوى والأخروى مقام يقاربه، قلت فيما سبق إن هذه المعاملة أثمرت ثمرتها فى أصحابه رضوان الله عليهم ؛ وهل يدرى القارىء ما هى هذه الثمرة : هى إجلال وإكبار له عليه الصلاة والسلام يحول بين أحدهم وبين أن يملأ عينه من وجهه الكريم ﷺ، وحب وصل بهم إلى أن يضنوا أن تلمس شعرة واحدة من جسمه ﷺ لمس إهانة وفى ارواحهم بقية اتصال بأبدانهم ؛ نعم كانوا والله فى المحافظة عليه كالآساد تهيج محمرة العيون مكفهرة الوجوه بادية الانياب ، محددة المخالب إذا أحست من يريد اقتحام عرينها . لذلك عاش وانتقل إلى الرفيق الاعلى وهو أعز من على وجه الارض ، تملأ العيون مهابته وجلاله. ويملأ القلوب حبه وإعظامه ﷺ ، لهذا أنا لا أزال على مذهبى فيه ﷺ من أنه من العيب الكبير على الرجل العاقل أن يحتاج إلى الدعوة إلى حبه ﷺ مع أن ماذكرنا قطرة من بحر تواضعه ولطفه ورفقه ﷺ

## ١١ — الزهد

أما حاجة المرشد إلى الزهد فى حطام هذه الحياة فحاجة لا يمكن الاستغناء عنها لامرىء يحرص على كرامته ويريد أن يكون لارشاده أثر فى نفوس الملتفين حوله من المسترشدين به، إن مما يدعو اليه المرشد الرغبة فيما عند الله من نعيمه المقيم وكرامته فى دار رحمته التى أعدها للصادقين من عباده — والعمل للوصول إلى ذلك فى جد ونشاط وتماد على عمل الصالحات — وفى انقباض مستمر عن مباشرة ما نهى مولانا عنه تبارك وتعالى، ويلزم هذه الرغبة الفتور والتهاون فى الجمع لهذه الحياة والاستهانة بشأن لذائذها ومتاعها والنظر بعين الرحمة والاشفاق إلى أهلها المشغولين بها عما رغب الله فيه — فاذا سمع الناس منه هذا ثم رأوه مستغرقا فيما رغب عنه قليل الاكتراث والعمل لما رغب فيه حاروا فى شأنه واضطربوا فى تأويل دعوته وظنوا به الظنون، وأقل ما يكون منهم نحوه أن ينظروا اليه بعين المتناقض فى قوله وفعله ووراء، هذا من التهاون بشأنه وراءه. ويتبع ذلك عدم الحرص على العمل بوصاياه، وهى فتنة دينية أى فتنة، ولا تبعد إذا ذهبت إلى أبعد من ذلك، وهل تدرى ما هذا الأبعد، هو عدم الثقة به والشك فيما يصدر عنه من أوامر ونواه قد تكون فى أصل الدين وصميمه؛ وهذا إن لم يكن كفرا من العامى يكون به على حافة الكفر، وهى بلية

عظمى وباب شقاء كبير. والذى أدى إلى كل هذا هو تعظيم المرشد لما أمر بتصغيره وتصغيره، لما أمر بتعظمه ، إن المرشد الذى يحب الدنيا يعمل ولا شك للحصول عليها ، وهـذا يستلزم مزاحمة الناس فيما هم فيه ، وهذه المزاحمة أقل مافيها بغض من يزاحمهم لحضرته ، ومن يقول إن المبغضين لمرشـد ينتفعون به، بل هم لا يعترفون له بصفة الارشاد إذا رأوه فى مستواهم فى التكالب على الدنيا ، وقد يتخذ حضرته الارشاد آلة لاصطياد الدرهم والدينار من عباد الله الذين يجتمعون به ويـكونون حوله ، وهو بهذا يجهز على حياته الارشادية فى لمح البصر ، فان المال محبوبهم الأكبر ومقصودهم الأعظم، فمن رأوه يوشك أن يشاركهم فيه بتّوا حبل وصله غير آسفين ، ومن يرشد وقد التفت يمينا وشمالا فلم يجد أحدا ، ولهذا المعنى تجد كتاب ربنا يحكى عن رسله أن أحدهم كان يصارح قومه بأنه لا يسألهم على ارشاده لهم أجرا انما ينتظر أجره من ربه الذى أرسله وأقامه فى عمله ، يصارحهم بذلك ليؤمنهم من ناحيته على دنياهم ليطمئنوا عليها وتقوى قلوبهم على الاجتماع به وسماع مايقول ، أما إذا رأى الناس مرشدهم قبل أن يقول يفعل مايقول من عدم اهتمام بهذا الفانى ذهب أم جاء قل أم كثر ورأوه مع هـذا الجوادَ الذى لا يسابق فى ميـدان العمل لآخراه

أما إذا رأى الناس مرشدهم هكذا فلا تسأل عما تجده فى قلوبهم من احترام له وإجلال بل وتقديس ولا تسأل عما يحدثه ارشاده

من نفع عظيم ، وكلما كان المرشد أزهد فى متاع هـذه الحياة كلما رأيت إقبال الناس عليه فى ازدياد وانتفـاعهم به فى اطراد ، واستدلوا بحاله هذا على صدقه وعلو همته؛ وكيف لا يكون صادقا وعالى الهمة من يعاف مايتزاحم الناس عليه ويتخاصمون ويتقاتلون ، حتى أن الولد يقتل أباه من أجله والوالد يقتل ولده فى سبيله ، ولهذا السر تجد قادة الأمم حقا حضرات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ كانوا فى عزوف تام عن الدنيا وإقبال كامل على الآخرة ، وبهم اهتدى عقلاء أممهم هداية استحقوا بها أن يرضى عنهم رب العالمين ، ويحييهم فى هذه الدار حياة طيبة بما يتودد اليهم من فيوضاته الاحسانية وأسراره التى يختصهم بها ، تلك الأسرار التي من شم منها شمة سما ذوقه سموا ينكر معه كل لذيذ دنيوى ، ويصبحون وعندهم المقلق المبرح من الشوق إلى الوصول إلى عالم ما تشرفوا به من ذلك السر الالهى ، فاذا تشرفوا الشرف الاكبر بذلك العالم عالم الجزاء كاملا ـ رأوا مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . هذا حال من اهتدوا بالأنبياء ، أما نفس الانبياء فالله أعلم بما يفيض عليهم من فضله فى هذه الحياة ، وبما يكرمهم به فى تلك الحياة . إذا عرفت هذا يا حضرة القارىء سهل عليك جدا تعليل ما تسمعه عن حضرات الأنبياء وعمن اهتدى بهم — من احتقار للذات هذه الحياة . فان من ذاق الشهد لا يحرص كثيرا على تعاطى الحنظل . وإنما

يتعاطاه لحكم الضرورة القاهر- ومن استهداف للحتوف فى سبيل الله ،فان أسعد الأيام هو اليوم الذى يصل فيه المرء إلى ما كان يلهبه الشوق اليه :ولذلك كان أصحاب حضرة مولانا ونبينا ﷺ اذا أصيب أحدهم إصابة وأحس أنها القاضية عليه امتلأ سرورا وربما صاح قائلا ( فزت ورب الكعبة ) ، ولما مرض أحدهم وعرف أن مرضه هو المرض الأخير كان يقول ( غدا نلقى الاحبه محمدا وحزبه ) والله أعلم بما كان بقلبه من فرح وابتهاج وهو يقول ذلك ، إن هذا الحنين الحار إلى الآخرة من أولئك الاصحاب رضى الله عنهم يدل دلالة ظاهرة على أن الدنيا ما كان لها أى نصيب فى قلوبهم وإلا لبدا ذلك على ألسنتهم وهم يودعونها الوداع الأخير ، وليس ذلك بكثير عليهم رضى الله عنهم،فان النبى ﷺ شهد لقرنهم بأنه خير قرون الدنيا،وخاطبهم ربهم بقوله ( كنتم خير أمة أخرجت للناس ) ، وإذا كان هذا مبلغ زهد أصحابه رضى الله عنهم فى الدنيا وعدم التعلق بها - فبماذا يقدر القارىء زهده هو ﷺ ، لعله يحكم بالبداهة أن الفرق بينه وبينهم يفوت حد التقدير ، بل هذا الحكم يجب أن يكون فى النسبة بينهم وبين أى رسول ،أما قدر زهده هو ﷺ فلا يعلمه إلا مولاه عز وجل ، وإن شئت أن تسمع شيأ عن هذا الزهد العالى فاسمع ماروا ه الشيخان والترمذى ، قالت عنه ﷺ أمنا الجليلة الصديقة السيدة عائشة رضى الله عنها ( ولقد

مات وما فى بيتى شىء يأكله ذو كبد الاشطر شعير فى رف لى فأكلت منه حتى طال على فكلته ففنى) ، وقال ﷺ (عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يارب ولكنى اشبع يوما وأجوع يوما فاذا جعت تضرعت اليك وذكرتك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك) . رواه احمد والترمذى

فماذا يقول القارىء فى هذا الزهد الذى يأبى أن تكون له بطحاء مكة ذهبا ويختار الجوع تارة والشبع أخرى ليصبر مرة ويشكر مرة غيرها ، وأكثر من هذا ماروواه ابن عساكر وابن سعد والطبرانى وأحمد واللفظ له وهو قوله ﷺ ( والله لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضـــة ) ورواه الديلمى أيضا من حديث ، وإنما كان هذا أكثر لأنه يتضمن زيادة على الحديث السابق ، وتلك الزيادة هى أنه عليه الصلاة والسلام بلغ جاهه عند ربه إلى درجة أنه ﷺ لو شاء ذلك الذى أباه لم يكن بين ربنا وبين تنفيذ هذه المشيئة إلا صدورها فقط منه ﷺ ، وهذا شىء عظيم جدا بل لا يتصور العقل درجة فى الوداد ودا دربنا فوقه أبدا ، وإنى أحب من القارىء أن لا يقصر هذا المقام عليه ﷺ فى هذا الذى أباه فقط ، بل الذى أرجوه أن يفهم أنه ﷺ لو شاء أى شىء يكون قضاؤه عند مشيئته ، وقد قررت هذا المعنى أمنا الجليلة الصديقة رضى الله عنها فى خاطبته ﷺ به ولم ينكر عليها إذ قالت له ( ما أرى ربك

لا يسارع فى هواك ) ، وهذا معناه أنه ﷺ لو شاء أى شىء لسارع ربه إلى تحقيقه له وإكرامه ﷺ به بمجرد ميله اليه فقط دون أن يحشمه مشقة سؤال لذلك الشىء ، وهذا معنى ربما تلجلج فى الايمان به بعض ضعاف العقول والايمان ، وإني لاأرى لهذا التلجلج معنى لوجهين ، الوجه الأول أن النص صريح فيه وصحيح صحة هى منتهى درجات الصحة ، فان الذى رواه أحمد والبخارى ومسلم وابن ماجه وابن ابى حاتم وابن مردويه ، والوجه الثاني أنا نعلم أن نبينا ﷺ سيد العالمين وصفوة الخلق أجمعين ، فهو إذن جدير بكل إكرام يتصور صدوره من ربنا لحبيب له ، وما ذكر يجيزه العقل ولا ينكره ، فانه داخل تحت تفضله تعالى وإكرامه ، ومن يستطيع أن يمنعه تعالى عن تفضله ؟ ومن هذا قدره لا يعد عظيما فى جانبه أن يعاف جبال الذهب والفضة وهى تحت مشيئته ، وما هى هذه الجبال عند هذا المقام ، إنها والله صغيرة وحقيرة ، ويرفع قدرها من يجعلها كخزفة أمام أنفس جوهرة فى الوجود ، يارينا يا كريم ياغنى ياقدير ياختار ، بحبك لهذا الرسول الأكرم وبمكانته هذه عندك أكرمنى إكرامك للطبقة العليا من خاصة عبادك ، وأذقنى حلاوة ودادك ، وأدمه على ، وزدنى منه ثم زدنى ، والمعنى المشترك بين هذا الحديث وبين الذى قبله يوافقهما فيه حديث ثالث رواه الطبرانى باسناد حسن يتضمن أنه ﷺ

عرضت عليه مفاتيح خزائن الأرض وعرضت عليه جبال تهامة أن تسير معه ذهبا وزمرذا وياقوتا وفضة فأبى أن يقبل ذلك، والذى تفهمه من هذا المقام أنه ﷺ لما عاف الدنيا ذهبها وفضتها وجواهرها ولم يكن منه أى ميل اليها عرضت عليه بحالة لم نسمع لا فى كتاب ولا فى سنة ولا فى تاريخ. ولو كاذبا. أن أحدا سبق أو يأتى يدانيه ﷺ فيها أو يساوى بالنسبة له جزءا من (ديشيليون) بل (ديشيليونات)، كيف لا وهى جبال تهامة كلها ذهبا وزمرذا وياقوتا وفضة ومع ذلك جميع مفاتيح الخزائن الذهبية والفضية والجوهرية واللؤلؤية والدرية والمرجانية وما اليها من المعادن الثمينة التى فى جميع الارض فأباها ﷺ بعد هذا العرض أيضا، والمعنى الزائد يوافقه حديث رواه ابن سعد عن عطاء قال (دخل عمر بن الخطاب على النبى ﷺ وهو مضطجع على ضجاع من أدم محشو ليفا وفى البيت أهبة ملقاة فبكى عمر فقال مايبكيك ياعمر فقال أبكى أن كسرى فى الخز والقز والديباج وقيصر مثل ذلك وأنت حبيب الله وخيرته كما أرى قال (لا تبك ياعمر فلو أشاء أن تصير الجبال ذهبا لصارت ولو أن الدنيا تعدل عند الله جناح ذباب ماأعطى كافر منها شيئا) وهذا الحديث يفهم منه سيدنا عمر معنيين بهما يستريح ولا يبكى المعنى الأول: أن الفقر الذى به البيت النبوى لاشىء فيه إلا جلود ملقاة - فقر اختيارى، ولو شاء ﷺ مالاً به يكون الغنى

الدنيوى لكان له من ذلك ما لم يسمع به أحد ، كيف لا وهى جبال الدنيا كلها لا جبال تهامة فقط تنقلب له ذهبا يصرف منها ويتصرف كما يشاء ، والمعنى الثانى ان الغنى الدنيوى ليس بالشىء العظيم الذى يبكى لعدمه فان الدنيا كلها عند الله لا تساوى جناح ذباب ، وانى أستطيع أن أقول لك بعد هذا كله إنه ﷺ دعا مولاه وابتهل اليه أن لا يجعله من أغنياء الدنيا بل أن يجعل رزقه ورزق آله قوتا أى لا يزيد عن قدر ما به يعيشون ، وهذا المعنى رواه البخارى ومسلم ، وقد استجاب له ربه هذه الدعوة فكان كما رأى سيدنا عمر ، نعم كان كذلك رغم إقبال الدنيا عليه ﷺ أيما إقبال بالغنائم والأفياء فلم يلتفت لها وكان يفرق أكوام الذهب والفضة دون أن يبقى لنفسه درهما ولا دينارا ، وهذا المعنى فيه ﷺ أى دعاؤه بما تقدم أرقى مما قبله فان الانسان قد لا يميل الى الشىء واذا عرض عليه لا يقبله ثم يتركه عند هذا الحد ، أما الزيادة على ذلك بالابتهال إلى الله أن لا يكون هذا الشىء فمبالغة فى النفور من ذلك الشىء وشدة حرص على أن لا يكون ، ومن هذا تستطيع أن تتخطى وصفه ﷺ بالزهد فى الدنيا وتقرر جادا أنه كان نفورا منها

وهذا ظاهر فى كل أحواله ﷺ فقد عرفت ، أن فراشه كان جلدا محشوا بليف وهو فى الصحيحين ، وانظر كيف يكون حال البدن الذى يكون تحت جنبه الليف محشوا فى جلد — وأن

بيته ما كان فيه شيء من متاع هذه الحياة ، وتقدم أنه كان يلبس الثوب المرقع والنعل المخصوف — وأنه كان يركب الحمار ، ويجب أن تعلم أنه خرج من هذه الدار ولم يشبع من خبز الشعير يومين متتابعين كما رواه البخارى — وأنه ﷺ كان يمر عليه الشهران ستون يوما وما أوقد فى ابياته نار . اتفق البخارى ومسلم على رواية هذا ، كل تلك المدة كانت تمر وما أنضجوا شيئاً ما يأكلونه أو يأتدمون به ، وإنما هما الأسودان التمر والماء يعيشون بهما — وأنه ﷺ كانت تمر عليه الأيام المتتالية لايذوق فيها شيأ لا قليلا ولا كثيرا — وأنه لهذا كان ﷺ يشد على بطنه حجرا تارة وحجرين تارة أخرى ليقيم ذلك من صلبه ويخفف من حرارة الجوع ، ولا تستغرب هذا منه ﷺ فانه الذى يقول ( إن أكثر الناس شبعاً أطولهم جوعا يوم القيامة ) رواه الحاكم وابن ماجه ، يعنى والعكس بالعكس — وأنه ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى وما ترك دينارا ولا درهما ولا شاة ولا بعيرا . رواه مسلم فى صحيحه ، والذى لم ينفر منه ﷺ من الدنيا شيئان النساء والطيب ، هذان هما اللذان أخبر ﷺ أنهما حببا اليه ، أما الطيب فمحبوب للناس وللملائكة يحبون ان يشموه من المخالط لهم ويكرهون أن يشموا منه رائحة غير طيبة ، وهو ﷺ دائما بين أن يكون مع الملائكة أو مع الناس ، وغير متصور أن يختلط ﷺ

بهؤلاء أوهؤلاء إلا وهو كما يحبون، فكان يتطيب ليضيف رائحة الطيب على رائحة بدنه الطبيعية - وهى أطيب من المسك - فتشتد ثم تشتد رائحته الطيبة، وأما النساء فقنع منهن بسيدة واحدة اقترن بها قبل أن يبعثه الله ودامت معه حتى بعد البعثة، وكانت وقت زواجه لها تبلغ الأربعين سنة، وكان هو إذ ذاك فى الخامسة والعشرين، وبعد أن توفيت تزوج ﷺ كثيرات غيرها بترخيص من ربه له خاصة، وانتقل إلى الرفيق الأعلى ومعه منهن تسع، وانما أبيح له الزيادة عن أربع لمقصدين دينيين جليلين

المقصد الأول أن يكون له من وراء ذلك الزواج عصبية من أصهاره الكرام الكثيرين يعتز بهم بين العرب، وذلك من أهم المهمات لمثله، فان المدعوين إذا علموا أن لمن يدعوهم قوة تدفع عنه اعتداء المعتدين يرهبونه ويكفون عنه أذاهم إن لم يتبعوه، ولذلك يحكى ربنا عن قوم سيدنا شعيب ﷺ أنهم قالوا له (وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) فخافوا رهطه ولم يخافوا ربه

والمعنى الثانى أن يتعاضدا ولئك النساء على تبليغ ما يشاهدنه منه ﷺ وهو فى البيت مما لا يطلع عليه غيرهن حينئذ، والأفكار تأبى أن تفهم أن هذه الكثرة من النساء يمر على فطنتهن جميعا شىء دون أن يبلغ، ولقد قمن رضى الله عنهن بذلك خير قيام وروين علما كثيرا وصل إلى الأمة من

طريقهن ، من أجل هـذا كان حبه ﷺ للنسـاء ، لا لما يخطر على بال الجاهلين به ﷺ من الميـل اليهن والتمتع بهن ، فان هذا معنى صغـير جـدا ينزه عنه ﷺ

لا بل ينزه عنه صغار الأتقياء الذين ذاقوا طعم الايمان وعرفوا قدر ما بين اللذات البهيمية واللذات الروحية ، وانما يتصور فيه ﷺ ذلك المعنى الفاجر الخاسر رجل فيه شبه بأبناء هـــذا الزمان الذين فعلت الشهوة النسائية بقلوبهم وأبدانهم مافعلت حتى غدوا بحالة لاتفرق بينها وبين حالة أى بهيم مع أنثاه ، والمشاهدة أعدل شاهد بذلك ، وإذا كان أحد هؤلاء بهذه الحالة الشنيعة فلا بعد فى أن يخطر بباله ان صفوة العالمين ﷺ انما كان يتزوج النساء لما يشعر هو به من نفسه ولأجله يتعرض للموت من وجوه كثيرة ، بل نحن يصعب علينا حصر من يموتون فى سبيل تلك الشهوة ، ومن طالع لوح الوجود أو كان له اعتياد بمطالعة أخبار الصحف اليومية عرف ما نقول ، ولو كان عنده ﷺ هذا الميل الصغير الحقير لظهر عليـــه وهو فى فتوته وقوة شبابه أيام كان مع تلك السيدة الواحدة المتقدمة فى السن رضى الله عنها ونفعنا بحبها ، أما مسكنه ﷺ فكان حجرات حول المسجد بها أمهات المؤمنين ، كانت لاهناك ولا هنا فى المظهر الدنيوى ، ومن أين يأتى هـذا المظهر لحجرات حيطانها من جريد النخل مكسوا ذلك الجريد ( بخيوش ) من

الشعر إذا مد الانسان يده إلى سقفها وهو واقف ناله . ومن هذا تفهم حاله ﷺ مع كل أنواع المحبوبات الدنيوية من مال لمأكل لملبس لمركب لمنكح لمسكن لفراش. سبحان الله أنا أشعر بخجل عظيم وضعف أعظم وأنا أكتب هذه الفصول التي بها أثبت أنه ﷺ يجب أن يحب . ولو كنت أكتب في غيره ﷺ من أصحابه رضي الله عنهم أو غيرهم من فضلاء الأمة لكنت أنشط مني وأنا أكتب فيه ﷺ ، وسر هذا أن الناس إنما يمدحون ويتفاوتون في قدر ما يستحقونه من ذلك المدح — بقدر حبهم له ﷺ - وبمبلغ ما وصل اليه أحدهم في التشبه به ﷺ في أخلاقه الفريدة ، وشمائله الفذة ، وأعماله التي تأبي كل الاباء أن تماثل بل ولا أن تدانى ، وعلمه البحر الخضم الذي لا يعلم له شواطىء إلا من منحه سبحانه وتعالى ؛ نعم ان الاقتداء به ﷺ ميدان لاغاية له . وفيه المؤمنون رضي الله عنهم يتسابقون تسابق الجياد؛ بل وما الجياد في سباقها ، فان أودية المقامات وفيافي الأحوال لا يصلح لقطعها ولا يستطيعه إلا أولئك الأتقيـــاء . أما ما يعترض المتسابقين في ذلك الميدان من سباع الرذائل ومن لصوص الشياطين وما يكادون به من حفر يحفرها أولئك اللصوص لحضرات المتسابقين ليتردوا فيها وبذلك التردي ينقطعون عن اخوانهم كماة الأبطال — فذلك أيضا يتفاوتون فيه رضي الله عنهم قوة وضعفا . وعلى قدر نشاطهم في القضاء

على سباع الرذائل ، وتنبههم لما يكيد به لصوص الشياطين — يكون قدر مايستحقونه من مديح ؛ وكما أن ميدان التأسى لاغاية له فكذلك ميدان مدح المتسابقين فيه لاغاية له ؛ وإذا كان هذا قولنا فيمن يحاولون الاقتداء فماذا نقول فى الامام المقتدى به الذى كل اجتهاد من عداه ليس إلا فى محاولة التشبه به ﷺ ، أنا فى هذا الفصل أحاول إثبات زهده ﷺ ليكون ذلك مدحا له عليه الصلاة والسلام ، ومن تأمل قليلا يظهر له أن ذلك ليس من المدح له ﷺ فى شىء ، فان الدنيا لا قيمة لها عنده ﷺ ، بل سبق ماتفهم منه أنه ﷺ كان نفورا منها ؛ ومن فى الدنيا يفهم أن ترك المنفور منه المرغوب عنه شىء عظيم يستحق المدح من يصدر منه ، إن الدنيا هى التى يصرح ﷺ بأنها لاتساوى عند الله جناح ذباب ـ ويقرر أنها أهون على الله من جيفة ملقاة على الأرض ، ويحكم بأنها ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وعالما ومتعلما ، ويمر على قوم يعالجون خصـــألهم ليصلحوه فيقول لهم ( ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك ) ، ومن أجل هذا قال ﷺ ( كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ) وعرض عليه أصحابه أن يتخذوا له فراشا لينا يستريح عليه إذا نام بدل الفرش الخشن الذى كان ينام عليه ، فرد عليهم ﷺ بقوله ( مالى وللدنيا ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها ) ، وإن أراد القارىء أن أقول له الحق

كله فى كتابتى فيه ﷺ فانى قائل له ، أنا أشعر وتشعر كل شعرة من بدنى كأنى أحاول بتلك الكتابة شيئا لا يسوغ لى ولا يليق به ﷺ ، وإنى متفق كل الاتفاق مع الشـــاعر الذى وصف ممدوحا له فقال مالا يجوز والله أن يقال إلا فيه ﷺ

تجاوز حد المدح حتى كأنه بأحسن ما يثنى عليه يعاب

وبعد فهل حضرة القارىء يستحسن أن أقول له إنه ﷺ يجب أن يحب فبادر إلى حبه بكل قلبك لما نذكر عنه من شمائل لم ير ولن يرى مثلها الوجود ، إنى أتصور أن توجيهى مثل هذا الأمر لأى مؤمن كأنه طعن عليه ، بل طعن أليم وشديد ، لما أن داعية حبه ﷺ فى قلب كل مؤمن كاملة غير محتاجة إلى محرك يحركها ، أدام الله علينا نعمة حبه ﷺ وحب أحبابه ، وأماتنا على ملته ، وحشرنا فى زمرته ، ولا حرمنا فى الدارين لذيذ رؤيته ، اللهم آمين

## العمل بالقول

الفروع التى يتعلق بها الارشاد كثيرة ومهمة . ولكثرتها وأهميتها أنزل الله تعالى الكتب وأرسل الرسل وأوجب الجهاد للقيام بها وتنفيذها ، وفى الجهاد ما فيه من إزهاق للأرواح وضياع للأموال وتلهب نيران خصام بين أقوام وأقوام ، بل تبلغ أهمية تلك الفروع إلى حد أن تربط بالقيام بها سعادة الدنيا وسعادة الآخرة التى لا منتهى لها ، فالذى يتصدر للارشاد لا بد أن يتعرض

لكل فرع من تلك الفروع بيانا له وتحريضا على فعله إن كان من الأوامر أو تركه إن كان من النواهى، لا فرق بين أن يكون الفعل أو الترك من وظيفة القلوب أو الجوارح، ومعروف أن المرشد له لسانان يفهم منهما الناس ما يريد أن يوصله اليهم من الأحكام، أحد اللسانين لسان الحال، والثانى لسان المقال. فلسان الحال هو عمل المرشد، ولسان مقاله معروف، ولسان المقال تسمعه الآذان ولسان الحال تراه العيون، وعن هذه الرؤية تحكم الألباب كما تحكم بعد أن تسمع الآذان، فاذا اتفق لسانا المرشد فى البيان عرف الناس حق المعرفة أنه جاد فى بيانه ودعوته لهم وتأكدوا إخلاصه واقتناعه بأهمية ما يدعو إليه، وحينئذ يوشك أن يسمعوا له ويطيعوا إن لم يكن الجميع فالعقلاء منهم، وإن اختلف اللسانان بأن قال هذا خلاف ما يقوله ذاك كان هذا من المرشد موضع وقفة من المسترشدين ومحل تفكير طويل منهم. وأقرب ما يكون منهم أن يقعوا فى حيرة ويقول كل منهم من أى اللسانين أسمع، وبأى الفهمين أقتدى وأعمل، أبما أفهمه من لسان الحال أم بما أفهمه من لسان المقال، وقد يفترقون: منهم من يجيز الاقتداء بهذا والاقتداء بذاك، لأن هذا لسان الرجل وذاك لسانه — ومنهم من لا يجيز الاقتداء بهذا ولا بذاك فان الرجل يثبت وينفى فى آن واحد، فاذا قال بلسانه هذا واجب فعله فافعلوه وقال بلسان حاله هو ليس بواجب بأن كان هو تاركا له - كان كاذباً ولا بد فى أحد النقيضين

والأحد ليس بمتعين لا فى قوله ولا فعله . وإذن هذا الأحد صادق بكل منهما . فلو خالف مخالف كلا من القول والفعل كان لا إثم عليه فى نظر نفسه، لأنه يخالف كاذباً وإن كان الواقع يكذب أحد النقيضين ، وقل هذا فيما لو قال بلسان مقاله هذا حرام فلا تفعلوه وقال بلسان حاله افعلوه بأن كان يفعله هو — ومنهم من يقول خذوا بقوله ودعوا فعله فيحترم لسان المقال ولا يحترم لسان الحال — ومنهم من يعكس ويقول أنا أتبع لسان الحال لأنه أقوى لأن الانسان لا يفعل إلا ما يختاره ويراه حسناً ولا يحترم لسان المقال. ويشتد هذا الارتباك إذا التزم اللسانان الاختلاف أو كان ذلك فى الأعم الأغلب ، فان الناس إذا رأوه هكذا لا يترددون فى الحكم عليه بأنه لاعب ، فلا يكون له نصيب عندهم إلا أنهم يسقطونه من أنفسهم ويجعلونه أضحوكتهم التى يضحكون منها. ومثل هذا أحقر من أن يكون قدوة يقتدى الناس به فى دينهم أو دنياهم . وقد سبق فى الكلام على فرع الزهد وحده أن قلنا إن اختلاف القول والفعل فيه يضيع المرشد، فكيف يكون الحال فى المطرد أو الأغلب اختلاف لسانيه . هذا نقوله فى أى مرشد من المرشدين العاديين المتبعين لحضرات أنبيائهم . أما إذا كان المرشد نبيا يدعى مع ادعائه النبوة أن كل قول أو فعل يصدر منه فهو تشريع إلهى يبلغه لأمته فهذا لا يختلف لساناه أبدا متى كان نبياً حقا ، فان اختلفا - ولو فى جزئية واحدة - وأقره هو مقتضى

الاختلاف ؛ بأن قال بلسان مقاله فى شىء هو واجب الفعل ؛ وقال بلسان حاله ليس بواجب ؛ أو قال ذلك فى حرام — كان هذا الاختلاف كافيا فى بيان أنه كاذب فى دعواه النبوة ، ومصيب كل الاصابة من يعتقد من صميم قلبه أنه ليس بنبى ، ولا حرج أبدا على من يقول ويعمل لاسقاطه ورفض اتباعه ، بل ذلك واجب على كل عاقل ، وانما كان الأمر بهذه الشدة فى حضرات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لان دعوى النبوة ليست بالامر الهين السهل . وانما هى دعوى فى منتهى الضخامة والعظم ليس هناك دعوى أضخم ولا أعظم منها لأنها تتضمن أن من يدعيها رسول الله ، أى عن الله يتكلم يقول لأمته ان مولاى يقول لكم افعلوا او اتركوا ، وأى دعوى بشرية تقارب دعوى من يقول للناس أنا نائب عن رب العالمين وعنه أعبر ، تصديقى تصديق لله ؛ وتكذيبى تكذيب لله ، وفى اتباعى سعادة الأبد ، وفى مخالفتى والتخلف عن إجابة دعوتي شقاء الأبد ، فلما كانت دعوى النبوة بهذه العظمة كان التخالف بين القول والفعل من مدعى النبوة بتلك الدرجة الكبرى التى تبرهن أوضح برهان على انه مفتر فى دعواه ، الناس يعرفون حق المعرفة من هو رب العالمين علما وحكمة ، فلا يخفى عليهم أبدا انه تعالى اذا أرسل رسولا يكون هذا الرسول مختار ذلك العلم المحيط الذى لاتخفى عليه خافية لافيما كان ولا فيما يكون — ومختار تلك الحكمة التى يستحيل

أن تضع شيئا الا فى موضعه واذا كان الناس يعلمون عن ربهم هذا فمن أبده البديهيات عندهم أن مختاره لا يمكن أن يتناقض لسانا حاله ومقاله، اذن كل رسول من رسل ربنا يجب على كل مؤمن ان يعتقد فيه أنه لا يجوز عليه أبدا ان يقول للناس يجب عليكم أن تفعلوا كذا ثم هو يتركه أو يحرم عليكم ان تفعلوا كذا ثم هو يفعله الا اذا صرح هو باختصاصه بما خالف فيه، هذا يقال فى كل رسول ارسله ربنا الحكيم العليم . وهو فى صفوتهم وسيدهم وسيد كل العالمين أقوى وأمكن وأكمل . ومن تتبع اعمال الدين فيه ﷺ عملا عملا تبينت له هذه الحقيقة واضحة ظاهرة، اذ يراه ﷺ فى كل عمل اليه المنتهى ـ دعا ﷺ الى توحيد ربه فتمادى على هذه الدعوة ولاقى فى سبيلها ما لاقى من المتاعب والآلام ومابدا منه عمل ما يخالف ما يدعو اليه بقوله حتى ساد مابعث ﷺ لأجله سيادة يشاهدها الموافق والمخالف لا يمترى فيها أى امتراء . ودعا إلى الجهاد فى سبيل الله ليتيح للئام المشركين فرصة يلحقون بها الكرام فى الايمان بالله وحده . فان مثل اولئك المشركين كمثل الطفل الذى لا يعرف مصلحته فترغمه إليها إرغاما . وكيف كان ﷺ فى هذا الجهاد . كان والله الجبل الذى تعصف حوله الأعاصير من كل جانب دون أن يشعر بها فضلا عن أن يهتز لها هزة ، أو كان كالصاعقة الماحقة التى لا يتعرض لها أحد الا سحق سحقا وكان كأمس الدابر . لا بيده هو ﷺ وإنما هى أيدى

حزب الرحمن وجنده الذين اختارهم له ربه سبحانه وتعالى ، لا يشك القارى. أدنى شك فى انه ﷺ كان فى تلك الحروب المزعجة المرهبة الملاذ لأصحابه يلوذون به ويلتجئون إليه يحتمون بحضرته إذا حمى الوطيس واشتد البأس ، وهم والله كانوا الأبطال الذين مارأت الدنيا نظيرهم ولا من يدانيهم فى بسالتهم ، ولا زال ﷺ القائد المهيب الذى ان اتجه إلى صوب سبقه الرعب إلى حيث اتجه حتى لحق بالرفيق الأعلى وماوقف لسان حاله امام لسان مقاله لحظة يخالفه فيها ، ودعا إلى خشية ربه ومخافته عز وجل ، لأنه مع حلمه وعفوه وكرمه الذى لاحد له — له غضب لا يحتمل وعقاب تذهل لتصوره الألباب ، ينزله بمن يستخف بأمره ونهيه وهو السيد الخالق المنعم الذى لاشريك له فى نعمة من النعم ، فكان فى هذا الباب باب الرهبة من الله — الفريد الوحيد . ذلك لأنه عليه الصلاة والسلام كان أعلم العالم به جل قدره وعلا جده ، وعلى قدر هذا العلم كانت مخافته ﷺ وخشيته لربه ، هذا مبلغ خوفه ﷺ من مولاه مع أنه أتقى الخلق وأقومهم بما يجب له سبحانه ، يدلك على قدر خشيته ﷺ لربه ما اتفق عليه البخارى ومسلم من أنه ﷺ كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه ﷺ فيقوم ويتردد فى الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله ، هذا الحديث يقول لنا أن الرجل كلما كان أعرف بالله عز وجل كلما كان أشد خوفا منه ، فهذا حضرة مولانا

ونبينا محمد ﷺ وهو صفوة الخلق يصل به الخوف من ربه إلى درجة لا يستطيع معها الجلوس ، ومن شدة هـذا الخوف يتغير وجهه تغيرا يدركه الناظر اليه فيفهم ان تردده فى الحجرة تارة ودخوله فيها وخروجه منها تارة أخرى — انما كان بدافع قوى من ذلك الخوف ، وأى حادث فى الكون أحدث عنده كل هذا ، هو فقط تغير فى الهواء ليس بمعتاد وهبوب لريح شديدة ، هذا الذى نراه اليوم فلا نلتفت له ولا نكترث به هو الذى كان يفعل به ﷺ ماذكرنا ، وماذا كان يخشاه ﷺ من ذلك الهواء ، كان يخشى أن يكون مقدمة عذاب سماوى ينزل بالناس وهو ﷺ موجود ، والذى يظهر لى أنه ﷺ كان من شدة ماينزل به من الخوف يغيب عنه أن وجوده أمان من نزول العذاب ، كما يقول تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) هـذا خوفه ﷺ فى وقت لم تر الدنيا نظيره ولا قريبا منه فى تقوى الله ولزوم حدوده بوجوده ﷺ ووجود أصحابه رضى الله عنهم الذين كان بهم من بركاته ﷺ الشىء الكثير ، فكانوا به فى الذروة من الدين بين جميع الأمم ، واذا كان ذلك خوفه ﷺ وهو سيد الخلق وأصحابه كانوا خير الأمم — فليقل لى القارىء وينصف كيف ينبغى أن يكون خوفنا نحن اليوم من عذاب الله وقد تركنا كل ما أمرنا به واقتحمنا كل مانهينا عنه بما فى ذلك والله أصل الدين وأساسه وهو

الايمان ، فان المدنية التى عشقناها فى هذا الزمان وهمنا بها هياما لا تكون مدنية حقا إلا إذا كنا إباحيين لا نحرم ولا نحلل ولا نقف عند حد فى عقائدنا وأعمالنا ، لست أقول إنا جميعا بالحال المذكور ، وإنما فينا كثير ذلك حالهم ، ولا يزالون يزدادون ، فان تيار المدنية يشتد يوما فيوما ولا رادع ولا زاجر ، وإنى أقول ان هذا الحال إذا دام على ما نرى فسنصبح بعد زمن ليس فينا مؤمن ، ومما يشف عن مبلغ خوفه ﷺ من مولاه أنه كان إذا دخل فى الصلاة سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل . رواه أبو داود والترمذى فى الشمائل والنسائي ، وهذا معناه أنه ﷺ وهو فى الصلاة أفضل عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه يغلب عليه الخوف غلبة يهيج لها قلبه هيجانا يجعله يغلى كما يغلى القدر فى حالة فوران ما به من ماء ، لا يغلى قلبه ذلك الغليان فى خفاء ، بل يظهر ذلك ويرتفع صوته من شدته لدرجة أن يسمعه من حوله ﷺ ؛ لا يستغرب هذا حضرة القارىء فانا نتكلم عن أفضل عبد برأه الله من أول الخليقة إلى أن ينتهى هذا العالم الدنيوى ، وروى ابن عدى والبيهقى فى الشعب أنه ﷺ قرىء عنده إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما فصعق ) ، لماذا يصعق ﷺ عند قراءة هذه الآية . الجواب أنه يصعق فزعا مما بها من وعيد ، سيد العالمين ياعباد الله يصعق ويغشى عليه وأمثالنا الغارقون لآذانهم فى

حمأة الرذائل لا يصعقون بل ولا يبكون بل ولا يفكرون فى مصيرهم، بل ولا يكترثون بهذا المصير، ولا يهمهم أجنة كان أم نارا، ولكن لا غرابة فانه ﷺ سيد أرباب القلوب الحية، أما موتى القلوب كحضراتنا فكيف يحسون بوعيد مهما كان عظيما وشديدا، إنا نروى مثل ما تقدم عنه ﷺ ليكون عندنا صورة صغرى من هيبته ﷺ وخشيته لربه، وهو فى غنى عن مثل هذا بما كان عليه فى معاملته لمولاه سبحانه؛ تلك المعاملة التى كل فرد من أفرادها أكبر برهان على مالديه ﷺ من منتهى الاجلال والتوقير لهذا المولى العظيم جل شأنه، ودعا ﷺ إلى الكرم وسماحة النفس ورغب فيه ثم رغب وكان هو ﷺ فى ذلك البحر الذى لاساحل له، فقد روى البخارى ومسلم عن سيدنا جابر بن عبد الله رضى الله عنه أنه قال ماسئل رسول الله ﷺ عن شىء قط فقال لا، وإنى أظن القارىء يعجب لهذا، لاتعجب ياأخى وتذكر مبلغ قدر الدنيا عنده ﷺ يسهل عليك فهم هذا الوصف، نعم ليس بغريب أبدا أن لا يرد ﷺ سائلا يسأل المال الذى أبى أن يكون له منه خزائن الأرض بل وأبى أن تكون له جبال الدنيا كلها ذهبا، بل ودعا مولاه وابتهل إليه أن يجعل رزقه وزق آله قوتا فقط، وإذن كيف تعد غريبا أن يعطى كل ماسئل عنه من هذا المال الذى ينفر منها نفورا كما سبق بيانه، وروى مسلم أن سيدنا أنسا

رضى الله عنه قال ماسئل رسول الله ﷺ شيئا إلا أعطاه فجاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى قومه فقال ياقوم أسلموا فان محمدا يعطى عطاء من لايخاف الفقر ، روى أصحاب السير أن هذا الرجل لما أخذ ما أخذ قال أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبي ، إن المروى فى هذا الباب باب كرمه ﷺ شيء عظيم ولكنى لا أعد شيئا من الدنيا عظيما عنده ﷺ ، كما أنى لا أعد هذا الكرم — وهو من أجل مكارم الأخلاق — من الصفات التى تحتاج إلى دندنة كثيرة فيه ﷺ بعد ان سمعت قدر هذه الأموال عنده عليه الصلاة والسلام ، وإذن لا يشتد عجبك ، إذا سمعت انه ﷺ سئل ولم يكن عنده ما يعطيه للسائل فأمره أن يستدين عليه ﷺ حتى إذا جاءه مال أدى ذلك الدين ، أنا اذكر البخارى ومسلما فى سندما أذكر فى هذا الباب وما يروى انه أعلى درجات الصحة وأعالج القارىء أن لا يعد ماروى غريبا — لأني أعرف أنا فى زمن ليس بمستعد لأن يقبل ماروى بسهولة ، فان هذا المال فعل بالناس مالا يتصوره العقل وأصبح عندهم المعبود الوحيد الذى إن أشار لا يرد له إشارة وإن حكم نفذ حكمه وإن غضب الآباء والأمهات والاخوة والأخوات ، بل وإن غضب والله رب السموات ، وماذا أقول فى شرح ما فعل هذا المال وقد أصبحنا نسمع أن المؤمن يقتل أعز الناس عليه أباه ومن اليه لأجل تافه من هذا المال ، وهل ماتموج به الدنيا اليوم من أنواع الفتن إلا من ناحية هذا المال

وإنى لأترقب قريبا كما يترقب غيرى من العقلاء حربا شعواء تنشب بين البشر يندلع لسان لهبها وينتشر ثم ينتشر حتى لاتبقى ناحية من نواحى الدنيا إلا وصل اليها وأحرق منها ما أحرق من الأرواح والأموال ، ان الناس يقولون ان الدنيا بالمال تعمر ولكنى أقول انها لأجل المال ستخرب وتخرب المال فى النفوس كما نصف، لهذا أنا ألح على القارىء أن لا يعد غريبا مايراه من كرم سيد الكرماء ﷺ ، ولهذا لا أكثر من رواية آثار هذا الكرم الفريد الذى لم تر الدنيا فى البشر ما يماثله بل ولا مايدانيه ، ليعذرنى القارىء الكريم إذا قلت أنا لاأدرى وعاجز كل العجز عن أن أدرى كيف كانت تكون حالنا مع هذا المال إذا كان حضرة نبينا ﷺ له مظهر دنيوى ، أقول هذا والذى يدعونى إلى قوله مانحن عليه من حب الدنيا والشغل بها شغلا أنسانا كل شىء حتى ربنا ونبينا ودينا ، هذا ما نحن عليه ومع هذا الذى نحن عليه نعلم حق العلم ان الدنيا عند إمامنا وقدوتنا ونبينا كانت بالدرجة التى شرحناها، ودعا ﷺ إلى الاجتهاد فى طاعة الخالق الرازق سبحانه وكان هو ﷺ فى ذلك بالدرجة التى لاتطاق ، فقد شهدت عليه زوجه الصديقة رضى الله عنها - وأعدل الشهادات شهادات الزوجات لأنهن أعلم بما عليه أزواجهن - إذ تقول عنه ﷺ إنه كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، فقلت له لم تصنع هذا يارسول الله وقد غفر الله

لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا ) ، رواه البخارى ومسلم ، هل يسمع القارىء ( حتى تتفطر أى تتشقق قدماه ) من طول قيامه فى الصلاه ليلا والناس نيام أو مشغولون بمشاغل بهيمية ، ولم لا تتفطر قدماه ﷺ وابن مسعود رضى الله عنه — وهو هو فضلا ونبلا — يقول (صليت مع النبي ﷺ ليلة فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء قيل وما هممت به قال هممت أن أجلس وأدعه ) رواه البخارى ومسلم أيضا ، ابن مسعود عالم الأمة الذى يخبر عنه ﷺ ان قدمه فى الميزان أثقل من أحد - لا يهم بذلك الذى هم به من قليل ، بل يجب أن نفهم انه كثير وكثير ، لهذا حصل لقدميه ﷺ ما حصل من تفطر كما تخبر أمنا الجليلة رضى الله عنها ، الصلاة كانت قرة عينيه ﷺ وكانت لذته التى يحن اليها ويتلذذ بهـــا ، ومن لا يطيل ثم لا يطيل فى شىء هذا حاله ، ثم هو ﷺ سيد المجاهدين فى طاعة ربه ، ومن يستكثر ما ذكرنا على سيد المجـاهـدين ، أنا أعجب لنفسى الآن وأنا أحاول أن أثبت للقارىء أنه ﷺ ما كان يدعو إلى شىء إلا ويعمل به ، بل بهذا أراني فى موقف لا يعجب العقل ، ولا يمتعض القارى من هذا التعبير فان العقل يقول إنه ﷺ يدعو الناس للعمل بمـا يدعو اليه فاذا تأخر هو عن ذلك العمل فقد فتح باب الاعراض عن سماع دعوته واتباعها ، إذن لا بد أن يبدأ هو

فيعمل بكل دينه الذى يكلف الناس أن يدينوا به حتى يتبعوه ، ويقول العقل من ناحية أخرى إن له ﷺ أعداء يتربصون له عثرة من هذا القبيل ، فاذا كانت ورأوا بأعينهم أنه ﷺ يتساهل فى ترك ما يأمر بفعله ولو مرة واحدة لكانوا طاروا بها طيرانا وشنعوا وملأوا الأرض طعنا وتشكيكا قائلين كيف يكون نبيا ويبدأ هو فيعصى ما جاء به ، إذن لا لوم علينا فى هذا العصيان ، وبذلك كانوا يقيمون الحجة عليه وعلى تابعيه بأنه ليس نبيا ، وبهذا كانوا يكفون الحروب والكروب ، النبى ﷺ أخبر أنه إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، لا تقل يتممها تشريعا فقط ، إن هذا غلط شنيع ، بل وليتممها عملا بها وتخلقا بكل أفرادها فردا فردا ، ولذلك قالت أمنا الجليلة السيدة عائشة رضى الله عنها ( كان خلقه القرآن ) تفسر بذلك ( الخلق العظيم ) فى قوله تعالى يخاطبه ( وإنك لعلى خلق عظيم ) ، ومعنى أن القرآن خلقه أنه كان يتخلق بكل ما يشير اليه فعلا وتركا يمشى معه حيث يمشى ويقف حيث يقف ، ليفهم هذا حضرة القارىء ولا يكلفنا أن نتتبع كل أفراد ماجاء به ﷺ ونذكر له حاله ﷺ مع كل فرد فرد منه فعلا أو تركا فان ذلك يطول جدا ويمل ، وإني أحب أن يفهم حضرة القارىء المحترم أن كل ما قدمته من الكلام فيه ﷺ جريت فيه على رعاية الأسباب والمسببات فذكرت أن عمله وعبوديته

فوق كل عمل وفوق كل عبودية ، وهذه مقدمة تنتج أنه كان خير العبيد العاملين فى طاعة ربهم ، وبعد هذا أرجوا أن لا يفهم أنه ﷺ سيد العالمين لتلك الأعمال وتلك الأخلاق فقط، والذى يجب أن تفهمه مع ذلك أنه انما كان بتلك الدرجة لأن ربه اصطفاه واختاره لها كما يشير اليه قوله تعالى ( الله أعلم حيث يجعل رسالته ) ولذلك يقول ﷺ فى الحديث السابق ( أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا ) وأنت تعلم أن الشكر إنما يكون لنعمة تقدمت ، ومعنى هذا أن موقفه ﷺ فى كل ما تسمع عنه من أخلاق وأعمال فوق ما هو معهود فى البشر سموا ونبلا — موقف عبد رأى عناية ربه به فوق كل عناية فاشتغل بشكره تعالى على قدره فكان بذلك سيد العابدين وسيد الشاكرين لأن قدره جعله ربه فوق كل قدر ؛ وبهذا حفظ مركزه كما يعبر الناس وبرهن بكل أحواله على أن اختيار ربه اختيار العليم الحكيم حقا ، ( بقيت كلمتان ) لابد من مواجهة الأمة بهما وأرجو أن تلتفت لهما وتقدرهما قدرهما فتسارع إلى العمل بهما ، أما الكلمة الأولى فما شاع اليوم وكثر ثم كثر من المتكلمين فيه ﷺ ، وهو أن أحدهم اذا أراد أن يذكر اسمه الكريم ﷺ ذكره مجردا عن أى كلمة تصحبه تشير إلى أى تعظيم ، وليس ذلك هو الأدب الذى أدبنا به ربه وخالقه معه ﷺ ، وإن شئت أن ترى شيئاً من ذلك الطراز الفريد فهذا القرآن ينادى المؤمنين به ﷺ

بما يجب من الأدب فى حقه ﷺ ويخيفهم من أحباط الاعمال ان لم يراعوه، فيقول (ياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون) ، فحرم علينا رفع صوتنا فوق صوته ﷺ — وأن لانخاطبة فى كلامنا معه كما يخاطب بعضنا بعضا فى جهر وعدم اكتراث ، وجعل خلاف ذلك يخشى أن يكون كالردة فى احباط العمل , روى البخارى ومسلم وأحمد وابن جرير واللفظ له ان الآية السابقة لما نزلت قعد ثابت بن قيس رضى الله عنه فى الطريق يبكى فمر به عاصم بن عدى من بنى العجلان فقال مايبكيك ياثابت قال هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت فى وأنا صيت رفيع الصوت قال فمضى عاصم بن عدى رضى الله عنه الى رسول الله ﷺ قال وغلبه ( أى قيس ) البكاء فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أبى بن سلول فقال لها اذا دخلت بيت فرشى فشدى على الضبة بمسمار فضربته بمسمار حتى اذا خرج عطفه وقال لا أخرج حتى يتوفانى الله أو يرضى عنى رسول الله ﷺ . قال وأتى عاصم رضى الله عنه رسول الله ﷺ فأخبره خبره . قال اذهب فادعه لى فجاء عاصم رضى الله عنه الى المكان فلم يجده فجاء الى أهله فوجده فى بيت الفرش فقال له ان رسول الله ﷺ يدعوك فقال اكسر الضبة قال فخرجا فأتيا النبى ﷺ فقال له رسول الله ﷺ مايبكيك ياثابت فقال رضى

الله عنه أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت فى ، فقال له النبى ﷺ أما ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة ، قال رضيت بشرى الله تعالى ورسوله ﷺ ولا أرفع صوتى أبدا على صوت رسول الله ﷺ ، وسمع سيدنا عمر رضى الله عنه رجلين فى مسجد رسول الله ﷺ قدار تفعت أصواتهما فجاء فقال أتدريان أين أنتما ، ثم قال من أين أنتما ، قالا من أهل الطائف ، قال لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا ، ليفكر القارىء طويلا فى قول سيدنا عمر للرجلين ( أتدريان أين أنتما ) ، وهو رضى الله عنه يقرر بهذه الكلمة أن رسول الله ﷺ يجب أن يعامل بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى بما كان يعامل به وهو فى حياة الدنيا ، وانظر كيف يرى رضى الله عنه أن رفع الصوت بمسجده ﷺ فضلا عن أن يكون بين يديه — جزاؤه الضرب الموجع ، وهو والله جدير بذلك ، فان ربنا هددنا باحباط العمل إن كان ذلك الرفع كما قلنا ، وحكم الله على قوم نادوه ﷺ من وراء حجراته ﷺ ليخرج إليهم - بأن أكثرهم لا يعقلون - وبأن الواجب عليهم كان أن يصبروا حتى يخرج هو ﷺ من حجرته التى هو فيها من تلقاء نفسه دون أن يكلفه مكلف بالخروج ، وفى هذا قال تعالى ( إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم ) ، هذا أذكره - لا لأنه فى موضوع ذكر الاسم مجردا ، بل ليعرف

المؤمنون قدره ﷺ عند ربه . وكيف يراعى خاطره حتى لا يرضى أن يخرج عن اختياره فى إجابة قوم يريدون لقاءه ﷺ . ويسلب العقل عن أكثر من يريدونه على ذلك ، نعم والله هذا شىء فوق أن يقال فيه كثير وعظيم . أما مسألة ذكر الاسم كما يذكره حضرات معاصرينا فلم يتركها ربنا بل نص عليها بخصوصها فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ) . أى أذا ناديتموه فلا تقولوا يا محمد كما ينادى أحدكم أخاه بل بجلوه وعظموه فى ندائكم فقولوا مثلا يا رسول الله يا نبى الله يا خليل الله ياحبيب الله يا سيد الوجود يارحمة العالمين وما إلى ذلك من ألقاب الاجلال والاكبار . فان ذلك هو اللائق بذلك المركز الاسمى . وما يفعله حضرات الاخوان — من ذلك القبيل المنهى عنه فانه تسمية له باسمه المجرد وان لم يكن فيه نداء ، فان ذلك النداء لم يمنع إلا لأنه ينادى الاسم فقط . هذا أدب الله الذى أدبنا به مع رسوله ﷺ إذا نحن ذكرنا اسمه فى نداء أو فى خبر ، ونقل ابن حجر فى الاصابة عن رجل كان استؤجر لقتل النبى ﷺ أنه قال من كلام طويل ( فقلت لصبى أين هو محمد القرشى الذى قدم عليكم فنظر الى متكرها وقال ويلك ثكلتك أمك لولا أنك غريب جاهل لأمرت بقتلك ، ألا تقول أين رسول الله ﷺ ؛ هو ذاك عند النخلة العوجاء عند أصحابه فأته فانك

إذا رأيته أكبرته وشهدت بتصديقه وعلمت أنك لم تر قبله مثله)، وهذا الـــكلام من ذلك الصبي المسلم يفهمنا ان ذكره ﷺ باسمه مجردا كان بينهم من العظائم التى لا تخفى حتى على الصبيان ، وكلام الصبي يفهم أنه عرف الكفر فى ذلك السائل؛ وتمام القصة يخبر أن ذلك الرجل أسلم

ولا يعجبنى بعد هذا مايقوله حضرات المعاصرين بأن المرء اذا اشتهر يكفى أن يذكر اسمه فقط . هذا كلام يرجع الى الرأى ولا قيمة للرأى مع النص ، فليعلموا هذا بارك الله فيهم ووفقنا واياهم للادب مع سيد خلقه ﷺ، على أنا لو أخذنا برأيهم ذلك كان من العيب فى نظرهم أن ننادى أحدهم باسمه مع اضافة شىء من الاجلال اذا كان من المشاهير، وهل يرضون هذا . ان الذى أعرفه أن أحدهم إن كان ( باشا ) أو من ( البكوات ) أو الأفندية نظر نظر الغضب الشديد لمن لا يناديه بياصاحب السعادة أو ياصاحب العزة أو يا أفندى ، ولعلهم جميعا يرون من القريب من الكفر أن ينادى واحد ملكا باسمه فقط دون أن يقول ياصاحب الجلالة وما ماثله . وإذا كانوا لا يرضون لأنفسهم الاسم مجردا — وان كانوا مشاهير — فلماذا يرضون ذلك لسيد العظماء ﷺ . ولعل ذلك من الواضح ، وأما الكلمة الثانية فما رأيته من كثير من الكتاب اليوم — من انكار ان له صلى الله عليه وسلم أى معجزة — ورمى الأمة المحمدية بالكذب فى إسناد

معجزات له حتى تعدوا ذلك القدر إلى اتهام هذه الأمة بأن الذى دعاها إلى ذلك الكذب هوارادتها أن تلحق نبيها ﷺ بنحو سيدنا موسى وسيدنا عيسى صلوات الله وسلامه عليهما فى أن له معجزات مثلهما، وهذا أولا يشير من طرف خفى إلى أن حضرات أولئك الكتاب يفضلونهما صلى الله عليهما وسلم - عليه صلى الله عليه وسلم، والاجماع على خلاف هذا. ويصرح ثانيا بتكذيب كل ماجاء من الكتاب والسنة يستند اليه ﷺ شيأ من هذه المعجزات؛ وإنى أوقن أنهم لايرضون لانفسهم لاهذا ولا ذاك، والذى أفهمه فى حضراتهم أنهم فقط لم يطلعوا على ماله ﷺ من معجزات، أو نظروا فى كتب المسيحيين او الموسويين فرأوا كلمة كهذه قالها أحد متعصبي هؤلاء أوأولئك فعلقت بأنفسهم تلك الكلمة ورددوها على أنها حقيقة من الحقائق، اعتذرعنهم بهذا ولا أستطيع ان اتفوه بأن رجلا يدعى أنه مسلم ثم ينكر انكارا باتا أنه ﷺ له معجزة، ولو أردنا أن نبين لهم ماصح بلا أى نكير من معجزاته ﷺ لطال الكلام واحتاج لافراده بالتأليف، ولكن لا بأس من ذكر بعض المعجزات التى لاشك فيها ليروا فقط أن دعواهم ليست بصحيحة فيعدلوا عنها ويستدركوا ما فرط منهم فى كتاباتهم التى صدرت عنهم فيما مضى، هذا القرآن الذى بين أيدينا الآن - معجزته ﷺ التى واجهها الامة حينما ادعى النبوة

وطالبهم أن يأتوا بقرآن مثله وهم إذ ذاك أفصح وأبلغ من على ظهر الارض بل من وجد على ظهرها فعجزوا عن ذلك ، فطالبهم أن يأتوا بما يساوى عشر سور منه فعجزو ، فطالبهم ان يأتوا بمثل سورة واحدة من سوره فعجزوا ، وعدلوا عن هذا الباب إلى أن يتلقوا فى صدورهم السيوف والرماح والنبال المهلكة ، ولو أمكنهم أن يعارضوا لعارضوا وفروا من الموت فرارا ، إذن هو معجزة يعجز الانس والجن عن أن يأتوا بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، ومن أنكر هذا فقد أنكر نفس القرآن، وفى نفس القرآن معجزات قال بعض الائمة إنها تزيد عن ستين ألف معجزة ،

وأخذ ﷺ كفا من تراب فى غزوة حنين ورمى به عيون المشركين فما من عين من عيونهم إلا وقد امتلأت من ذلك القدر الذى يملأ الكف فقط ثم كانت الهزيمة لأولئك الأعداء بعد أن كان النصر لهم ،روى هذا الشيخان البخارى ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث ، وقد ذكر القرآن رمية كهذه كانت بغزوة بدر إذ قال ( ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى) ورويا أيضا هما وغيرهما ان أهل مكة سألوه ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين ، والقرآن يقول فى هذه المعجزة ( اقتربت الساعة وانشق القمر )

وروى البخارى ومسلم - انه ﷺ كان يرى من خلفه كما كان

يرى من أمامه ـ وأن فرس سيدنا سراقة ساخت أرجلها فى لارض إلى بطنها لما دعا ﷺ عليه بقوله اللهم اكفناه بما شئت ـ وانها خلصت لما دعا له ﷺ ـ وان بيادر سيدنا جابر أدى منها الديون كلها وكأنها لم تنقص تمرة وكان يتمنى أن يؤدى الله عنه بها ولا يرجع لاخواته بتمرة واحدة، حصل ذلك بدعائه ﷺ ـ وأن الماء نبع من بين أصابعه ﷺ حتى كان يفور كأمثال العيون وشرب وتوضأ من ذلك الف وخمسمائة ولو كانوا مائة ألف لكفاهم . وان الذى أخبره بالجن ليلة استمعوه شجرة ـ وأنه أخبر عن رجل كان فى الجهاد لا يدع شاذة ولا فاذة من الكفار أنه من أهل النار، فتبين كما قال ﷺ فانه قتل نفسه ـ وانه ﷺ بصق بعين سيدنا على لما دعاه لفتح خيبر وكان أرمد يقاد فذهب رمده حتى كأنه لم يكن به وجع ـ وأنه أسرى به فى بعض ليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعرج به إلى حيث تجاوز السموات السبع بل وصل إلى مكان سمع فيه صريف الاقلام ورأى ليلتها الجنة والنار ورأى من الآيات الكبرى ما رأى ، والاسراء نطق به القرآن وكذلك المعراج ـ وانه كان ممنوعا من الناس لا يستطيعون قتله وهو أمامهم، ولقد قال سيدنا أبو بكر يوم كانا بالغار لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا ، فقال له ﷺ ما بالك باثنين الله ثالثهما ، ومن هذا ما رواه الترمذى والحاكم والبيهقى وأبو نعيم من أنه ﷺ قال لرجل قيل له أنه كان يريد

أن يقتلك (لن تراع لن تراع) لو أردت ذلك لم يسلطك الله على
ومنه ما رواه ابن أبي حاتم والبزار من أن أمرأة أبى لهب لما
نزلت سورتها وزوجها ذهبت اليه ﷺ وبيدها حجر تريد
إيذاءه به فلم تره وهو بين يديها - ورويا أيضا أن صدره ﷺ
شقه الملائكة - وحصـــل هذا مرات - ولأموه دون
أن يشعر بأثر لهذه العملية العظيمة ، وروى البخارى أنه
ﷺ كان يخطب يوم الجمعة مستندا إلى جذع نخل فلما صنع
له المنبر وانتقل إليه جعل ذلك الجذع يصيح صياح الصبى
والناس يسمعون فضمه ﷺ فجعل يئن أنين الصبي الذى
يسكّن — وأن الطعام سبح فى يده ﷺ ويد الصحابة الذين
كانوا يأكلون معه ﷺ - وأنه مسح رجل سيدنا عبد الله ابن
عتيك — وكانت مكسورة - فانجبر الكسر وكأنه لم يشكها قط،
وروى مسلم أن أبا جهل أراد يوماً إيذاءه ﷺ فلما دنا منه
نكص على عقبيه يتقى بيديه ، ولما سئل عن ذلك قال أن بينى
وبينه خندقا من نار وهولا وأجنحة ، وفى ذلك قال ﷺ
لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوا عضوا ، وهو من باب منعه
ﷺ — وأنه أراد أن يقضى حاجة الانسان فلم يجد ما يستتر به
فدعا شجرتين فانتقلتا من مكانهما والتأمتا فجلس وراءهما يقضى
حاجته ثم رجعتا لمكانهما — وأنه ﷺ دعا فى الطعام اليسير
فكثر حتى أكل الجيش منه كله وملأوا أوعيتهم وكان ذلك

فى مجاعة حصلت بغزوة تبوك ـ وأن ثمانين أكلوا من طعام أبى طلحة الذى كان مهيأ له ﷺ وحده ، وبعد الانتهاء قالت زوجه لولا أني رأيتهم يأكلون لقلت ما نقص من طعامى شىء ، وإنا نكتفى بما ذكرنا من معجزاته ﷺ ، ومن أراد أن يستكثر من ذلك فليرجع إلى الكتب المؤلفه فى هذا ؛ فانه يرى هناك العجائب والغرائب ، وإنا نقول بأعلى صوتنا إن ما قدمنا ثابت قطعا ، من أنكره وأمثاله فانما ينكر سنة رسول الله ﷺ وينكر القرآن الذى أثبتها واحترمها بقوله ( لتبين للناس ما نزل اليهم ) وبقوله ( وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ) ، وهو فى الوقت نفسه يسقط أمة بأسرها هى خير الأمم ويقضى عليها بالكذب فلا يحترم رواة تلك المعجزات ولا من أقروها ورووها عنهم من عهدهم إلى يوم القيامة ، هذا موقف أولئك الذين ينكرون معجزات سيد الوجود ﷺ وهو موقف شذوذ وعدم مبالاة بالوقوف امام الاسلام وأهله موقف المعاند المستخف ، وبعد فانا نلتفت عن هؤلاء إلى جماعه المؤمنين قائلين لهم : ان الحب الصادق هو ما حرض على طاعة المحبوب ، ومن ادعى المحبة ثم وقف من المحبوب موقف المخالف فقد برهن على انه كاذب فى دعوى المحبة ، وبناء على هذا أقول أنا أريد ممن رأوا كلامى السابق ان يقولوا لى بلسان فعلهم انا نحب سيد العالمين ، وذلك بأن يتحروا أخلاقه الكريمة فيتخلقوا بها ما استطاعوا وأفعاله النبيلة فيفعلوا منها ما تيسر لهم وأمكنهم

حريصين الحرص كله ان لايكونوا إلا فى الطريق المحمدية وإلا كانوا مع من قال فيهم القائل

تعصى الاله وأنت تظهر حبه هذا العمرى فى القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وإنى اكفكف جواد القلم عن الاندفاع فى هذا المضمار الذى تنتهى الدنيا ولاتدرك له غاية ، وأرجو أن يكون القارىء باطلاعه على ماقدمنا غداً متحققا بقوله ﷺ ( لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين ) رواه الشيخان وغيرهما

أما الحقير الذليل مصطفى ابو سيف الحمامى فلا يسعه — بعد أن اجترأ وكتب ما كتب — الا أن يتقدم إلى سيد الخلق ﷺ معتذرا عما فرط منه من جرأة على مقامه الأسمى ، ذلك المقام الذى لم يخلق ربنا مقاما يقاربه ، نعم جدير أنا والله أن أبالغ فى الاعتذار لسيدى صفوة العالمين ﷺ ، ذلك أنى أعمش البصيرة ضعيفها وكيف يصل نور ضئيل كهذا إلى ذلك المقام الأرفع حتى يتناوله بالوصف المناسب والتقـــدير الصحيح ، وماذا يقوله لسانى الكليل أو يكتبه قلمى الهزيل الأعرج فيمن يخاطبه ربه وخالقه بقوله الحكيم ( وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ) لذلك لايسعنى إلا أن أنتهى بقولى

عفوا يا أسمى الخلق ففى حى لكم أسمى الشفعا

اللهم إنى أحب هذه الرحمة التى أرسلتها للعالمين ، اللهم لا تحل بينى وبينها لافى الدنيا ولافى الآخرة ، إنى أسأل كرما كل كرم فى الوجود من فيضه ، ورحمة بها يتراحم كل ماعداها ، ووداداً لولاه ما كان وداد ، اللهم استجب لى يا كريم يارحيم يا ودود ، وإن لم أكن أهلا لأن أجاب فأنت أهل لأن تجيب ، ياربى إنى أشهدك أنى أشهد من صميم قلبى أنك وحدك رب العالمين — وأن مولاى محمد بن عبد الله عبدك وخاتم رسلك وأن ماجاء به دينك الحق ووحيك الذى به حياة القلوب ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ؟

# فهرس الينابيع


| ص | | ص | |
|---|---|---|---|
| ٢ | مقدمة | ٣٦ | شجاعته ﷺ |
| ٦ | ماذا يفهم لقب رسول الله | ٣٩ | صدقه ﷺ |
| ١١ | أثر دعوته ﷺ | ٤٩ | قوة بيانه صلى الله عليه وسلم |
| ٢٤ | ثباته على مبدئه ﷺ | ٥٥ | تواضعه صلى الله عليه وسلم |
| ٢٦ | علمه ﷺ | ٦٣ | زهده صلى الله عليه وسلم |
| ٣٠ | حلمه ﷺ | ٧٦ | عمله بقوله ﷺ |